

**الشعرية العربية، من تعالي البنية إلى انفتاح النصّ
قراءة في مفهوم الشعرية
وتطورها في الدرس النقدي العربي التراثي**

بقلم: د. محمد زيوش ❖

مدخل:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز أهمّ مفاهيم الشعرية العربية، ومقاييسها في نسقها التطوريّ لحظة التأسيس لها، والذي استغرق زهاء القرنين، فكان الانتقال من مقاييس الشاعرية التي هي خاصة بالمبدع، إلى مقاييس الشعرية الخاصة بالنص ودواخله، إنها اللحظات الأولى التي عرفت فيها الشعرية العربية ميلاداً عسيراً لمتن نقديّ، نتيجة انتقال النصّ من الشفاهة وجمالياتها إلى الكتابية وجمالياتها، والانتقال من عمود الشعر الذي اكتسى قدسية، نتيجة القراءة بالمماثلة إلى نظرية البديع، والتي سعى النقاد إلى ضمّ بعض عناصرها إلى مقاييس الشعرية العربية، انطلاقاً من رؤيتهم للعالم، بعيداً عن كلّ المؤثرات اليونانية، غير أنّ السؤال الأوّل الذي يتبادر للذهن،

ونحن نحاول رصد تطوّر الشعريّة العربيّة قصد الإحاطة بكل جوانبها، في محاولة انتشالها من وسط خطاب معقد، تتحجب من ورائه منظومة من القواعد، تتجاوز طبيعته اللسانية، فتجعل فهمه مستعصياً، وقراءته خارج سياقه التاريخي، وضرباً من العبث، هو: هل نستطيع قراءة المسار التطوري للشعريّة العربيّة، ونستلّه من داخل هذه البنى الخفية التي توجهه؟

إنّ فهم الخطاب النقدي العربي، وهو يحاول رصد الشعريّة يتطلب منا أولاً، التعامل معه في حدود النقلات الإدراكية المنتظمة في نسقها التطوري؛ فالتراث النقدي العربي سواء على مستواه النظري أو التطبيقي، زخر بجهود متميزة، حاولت تقديم تصور نظري، وتطبيقي لما يجعل من الأدب أدباً، وإدراك الشعريّة يتطلب منا في محاولة فهمها، وتحديد كل جوانبها استقراء التراث النقدي في مستويات عدة؛ إذ هو غني من حيث حقوله، ومفاهيمه، ومصطلحاته، ومرتهن بسياقات، وظروف أنتجته، وعليه فتحديد: "الأدبيّة الممثلة شعراً أو نثراً أو في أشكال مدمجة للطرفين أمر نسبي تاريخي، والفيصل في تحديدها هو الاحتكام إلى السياق الذي أنتجها"^(١)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى مقيّد بالإشكال النظري، الذي ظهر في صعوبة وضع تعريفات نهائية، بحكم نمطية الأدب، وتغيّر أشكاله، وأنواعه؛ فالبحث في الأدبيّة، والشعريّة، يستدعي الإحاطة بجميع الأعراف، والتقاليد المؤسسة للخطاب الثقافي العربي القديم بصفة عامة، والخطاب الأدبي بصفة خاصة.

١. بدايات تحسس الشعيرية في العالم :

لقد اكتشف الإنسان منذ الأزل، أنّ اللغة لها وظيفة تواصلية، وهذا طبعي بالنسبة له، لكن المدهش هو أن يكتشف أنّ بعض الكلام الذي يقوله، والذي جاء معه منذ الطفولة دون مكابدة، ولا جهد، ليس عادياً، من حيث تفوقه على الأول بقوة الوقع على النفس، والقدرة على تحريكها، وكان هذا الإحساس بالتفاضل في الكلام، قد حمل الناس منذ القدم على الانتقاء من أقوالهم كلاماً من مستوى آخر، فأصبح موضوعاً لتأملات إضافية، ومصطلحات خاصة، وهذا ما جعل الإنسان ينتبه في وقت مبكر جداً من تاريخ البشرية، أنّ هذا المستوى من الكلام هو خطاب آخر، يختلف عن الأول بأنه غير بديهي، ولا مشترك معه في خصائصه، إنها حال يكون فيها الخطاب شبه متصلّ من مهمة التوصيل، فاسحاً المجال للكلمات لخدمة نفسها مبرزة الأداة اللفظية في ذاتها. وهو ما أحسن شيشرون التعبير عنه عندما قال وهو يصف هذه الحالة: "إنّ الزمي الذي ابتكر تحت ضغط الحاجة لحماية الجسد من البرد قد تحوّل فيما بعد إلى أداة زينة. كذلك اللغة ابتكرت في البداية تحت ضغط الحاجة لتوصيل الفكر إلا أنها تحوّلت فيما بعد لكي تصبح مادة تزيينية"^(٢)، بمعنى آخر كما يقول ميرلوبونتي (Maurie Merleau-Ponty) في كتابه الموسوم (نثر العالم): "إنّ هناك لغتين، هناك لغة على غرار الواقع، أو لغة بوصفها مؤسسة، تطمس نفسها من أجل أن تخلي مكانها للمعنى الذي تنقله. وهناك لغة

تخلق نفسها في أفعالها التعبيرية، فهي تجرف المرء من العلامات نحو المعنى^(٣) هذا المستوى من الكلام، يتطلب مستوى من (الشعور، والعلم بأضراب الكلام)، فسمي من يحقق هذا المستوى من الكلام (شاعراً) لما له من قدرة على تحويل اللغة من لغة مترسبة منطوقة إلى لغة ناطقة.

إذن، الوعي بالوظيفة الشعرية كان أول مظهر من مظاهر الوعي اللغوي، والتأمل في اللغة لذاتها، وهذا ما جعل أسلافنا القدامى يُنزلون هذا المستوى من الكلام منزلة متميزة، فحافظوا عليه، وتناقلوه، وأضافوا إليه، وهدّبوه، وأنزلوه منزلة راقية، من حياتهم الذهنية، والوجدانية، وهو العمل الذي اشتركت فيه كل المجتمعات الإنسانية، ولم يقتصر عليه العرب؛ فليس هناك مجتمع إنساني على وجه المعمورة، إلا وله من هذا المستوى من الكلام نصيب، قد عمل على استمراره، وعلى الاستمرار فيه، ودفع هذا الإحساس بأسلافنا إلى رواية الشعر، وجمعه، والتدبر فيه، يقول تودوروف: "إن نشأة البلاغة كمبحث قائم الذات هي أول شهادة على التأمل في اللغة في الموروث اللغوي"^(٤).

٢. ثقافة الأذن وبدايات تحسس الشعرية العربية:

إنّ النص الأدبي يستمد وجوده من تقبل متقبّل، يحكم بأنه نص يتجاوز الكلام العادي، أو ينحط دونه، فيصبح عيار الكلام المتجاوز، عيار تقبل تلذذ أو نفور، وعليه فوجود النص الأدبي مرتبط بوجود متقبل - وإن كان أول المتقبّلين هو الباث نفسه - والأدبية بذلك، تتجلى في أول

مستوياتها في الأثر الذي يتركه النص في متلقيه، من انفعال شعوري يؤول بصاحبه في النهاية إلى اللذة الأدبية.

وقد أدرك نقادنا العرب القدامى أهمية السماع، والفاعلية التي ترتبها بـ"ثقافة الأذن"، في تحسسها الأدبية، وعليه تمّ اعتبار فاعلية الأذن داخلة في صلب العملية الإبداعية إنتاجاً، وتلقياً، ومن ثمّ الاحتكام إليها في مقارنة الجميل الأدبي، أثناء وضع النقاد لمقاييسهم النقدية سواء الشعرية أو النثرية، فلا يعدم الباحث من وجود نصوص نقدية قديمة أسهبت كثيراً، وفصّلت في الحديث عن مواطن الجمال، والحسن، في الكلام الأدبي، وعكست المراحل الحاسمة التي مرّ بها نقدنا العربي، خلال محاولة النقاد فهم طبيعة الأدب، واكتشاف خصائصه التمييزية، وتنشيط الحركة الأدبية، والنقدية، بدراساتهم النظرية، والتطبيقية، المحللة للنصوص الأدبية، أو الموازنة بينها، وهو ما عرض الشعرية العربية في مفاهيمها، والمقاييس المحددة لها، إلى مدّ، وجزر، ما بين محاولات التأسيس، والتأصيل، وما بين تعدد الآراء، وانتقال ماهية الشعرية، ودورها من حال إلى أخرى، وهذا راجع إلى اختلاف النقاد، واتجاهاتهم الفكرية، وما نتج عنه من صراع بين حماسة التقليد ودعاة التجديد، وكذلك راجع إلى اختلاف الزمن، والعوامل الخارجية، التي لم يكن الأدب، والنقد بمعزل عنها، ولا يمكن معرفة المفهوم الناجز، والحقيقي للشعرية، ما لم نجرّ فحصاً أنياً للظاهرة، وتتبعاً للمراحل التاريخية التي عايشتها، وتأثرت بأحداثها.

وأول ما نتعرض له، هو تلك المعايير البسيطة، في استخداماتها، لكنها أظهرت ممارسة العرب القدامى للنقد، ووعيمهم بخصائص الخطاب الأدبي، ولعل أول معيار اعتمد لدى العرب القدامى، للتدليل على الصفة الشعرية في الكلام الأدبي، هو ما يساعد على تجلي اللذة الأدبية، في مظاهرها الحسية لدى المتلقي، أثناء لحظة السماع، أو بعدها، وهي مظاهر تتجلى في التغيرات التي تطرأ على المتلقي، فالنص الجيد يكون: "أسرع إلى القلب"^(٥)، وهو الذي يحدث في الجسم إحساساً بـ(الطرب)، و(الارتياح)، يقول الجرجاني (ت. ٣٩٢هـ): "ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح، ويستخفك من الطرب إذا سمعته"^(٦)، ويعاود الجرجاني الحديث عن هذه اللذة في موضع آخر حيث يقول: "ثم أحسست في نفسك عنده هزة، ووجدت طربة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم يُنازع فيها"^(٧).

وإذا كان الجرجاني في هذا الموضع، قد اكتفى بذكر اللذة، وأثرها على النفس دون ذكر التجلي الحسي لها عند المتلقي، فإنّ نصوصاً أخرى أفاضت الحديث في هذا الشأن، مُبرزة أنّ الطرب يتجلى في أشكال مختلفة تظهر للعيان، منها على سبيل المثال لا الحصر، ما يعرف بـ"الترديد"، مثل ما هو في رواية الجاحظ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين أنشدوه شعر زهير^(٨)، أو التعبير بالإيماء، مثل ما روى ابن قتيبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين سماعه قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد)^(٩)، وهناك حالات أخرى

من الطرب: كالضرب بالرجل على ما ذكره المرزباني (ت ٣٨٤هـ): "تشاجر الوليد بن عبد الملك ومسلمة أخوه في شعر امرئ القيس والنابغة الذبياني في وصف طول الليل، أيهما أجود، فرضيا بالشعبي فأحضر. فأنشده الوليد [لِلنَابِغَةِ]: (من البحر الطويل)

كَلَيْنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
...وأنشده مسلمة قول امرئ القيس: (الطويل)

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
...قال: فضرب الوليد برجله طرباً. فقال الشعبي: بانث القضية" (١٠).

إلى جانب ما أوردته لنا كتب النقد الأدبي، عما يحدثه الكلام غير العادي (شعر/نثر) من وقع، وطرب في نفس المتلقي، وانفعال شعوري، يتجلى لدى المتلقي في سلوكات مختلفة، دالة على حدوث لذة ما، فإنّ دارسي الإعجاز القرآني هم كذلك، تنبّهوا إلى هذه القضية، وأوردوا لنا مواقف تبيّن فعل القرآن على الآذان السامعة، يقول الخطابي (ت ٣٨٨هـ): "قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس. فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً، ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة، والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه. تستبشر منه النفوس وتنشرح له الصدور حتّى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاحة قد عراها من الوجيب، والقلق وتغشّاها الخوف، والفرق

تقشعرّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب. يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها"^(١١).

ويذهب الخطابي إلى الاستدلال على ذلك، ضارباً لنا مثل إسلام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، والذي من أسبابه المباشرة، سماعه قراءة أخته لسورة طه^(١٢)، ويستند الخطابي في رأيه هذا على الآيات القرآنية، التي تشير صراحة إلى هذا الوقع الذي يحدث أثناء السماع، كقول الله تعالى، في محكم تنزيله: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ)^(١٣).

لقد كان لهذا النوع من الكلام في نظر العربي فاعلية، أكثر من الفعل ذاته؛ لأنّ به كانت تدفع: "العظائم، وتسلّ به السخائم، وتخلب به العقول، وتسحر به الألباب لما يشتمل من دقيق اللفظ ولطيف المعنى"^(١٤)، ويؤكد الجاحظ نفسه بأنّ الكلام هو أخطر فعلٍ مارسه الإنسان على الإطلاق، وعبر عن هذا الفعل الخطير بـ (فتنة الكلام)^(١٥)، والتي استعاذ بالله منها، وعليه سٌتحدّد الشعرية العربية في ظل هذا الفهم، مقاييسها الجمالية، انطلاقاً من مكانة النص، بما في ذلك النص القرآني نفسه، ودوره في الثقافة العربية.

وإذا كانت هذه النصوص التي أوردتها النقاد، تتفق جميعها في أنها نصوص تبين التلذذ الأدبي، فإنها أظهرت العجز عن تحليل الجودة، واستحسان الشعر، وإيجاد العلل الدقيقة في تأثيره على المتلقي، يقول القاضي الجرجاني:

«وأنت قد ترى الصّورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكمال، وتذهب في الأنفس كل مذهب، وتقف من التمام بكل طريق، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن، والتتام الخلقية، وتناصف الأجزاء، وتقابل الأقسام، وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول، وأعلق بالنفس، وأسرع ممازجة للقلب. ثم لا تعلم - وإن قاسيت واعتبرت، ونظرت، وفكرت - لهذه المزية سبباً، ولما خُصّت به مُقتضياً»^(١٦)، ويقول ابن رشيقي: «سمعت بعض الحدّاق يقول: ليس للجودة في الشعر صفة، إنما هو شيء يقع في النفس عند المميّز، كالفرند في السيف والملاحة في الوجه»^(١٧).

٣. ملامح المقاربات الواعية بالشعرية:

الظاهر أنّ غرض النقاد من وراء سرد النصوص السالفة الورود، هو تبرير الحاجة لقيام علم جديد يختص بمعرفة الجميل الأدبي، وتعليل الظاهرة الأدبية، التي ظل تفسيرها مقترناً بما هو خارجي عنها، ابتداءً بالمحدد الماورائي، الذي جعل الشعراء يتفاضلون بشياطينهم ومنازلها^(١٨)، والمحدد الدّموي، الذي جعل منزلة النص تعلو بمنزلة علوّ جاه صاحبها، كما فعل الصلتان العبدي حين احتكم إليه جرير، والفرزدق، فرجع من الفرزدق، وحطّ من شاعرية جرير؛ لأنه من كليب^(١٩)؛ والمحدد العرقي، الذي جعل الشعراء بداية من الفرزدق، يزدرون شعر العبيد، ويحقرونه مقابل تبجيل شعر الأسياد^(٢٠)، والمحدد الخُلقي، الذي جعل حسن بن ثابت شاعر الإسلام لأنه: "لا ينعت الرجل إلا بما فيه"^(٢١)، والمحدّد الذكوري

الذي كثيراً ما تفاخر به العرب حتى جعل النابغة يعبر ليلى الأخيلية،
والفرزدق يحطّ من رجولة بعض خصومه، وجريز وابن لجأ يهزآن من
خصومهما، وأبا نجم يفتخر بشيطانه (الذكر):

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر^(٢٢)

قلت إنّ الحاجة هي التي جعلت النقاد يلتفتون إلى ضرورة وجود علم
يعلّل الظاهرة الأدبية بعيداً عن هذه المحددات، اللصيقة بالشاعر، وليس
بالنص، قائمة خارجه، والمشتقة من سلّم القيم القبلية، والدينية^(٢٣)،
خاصة وأنّ الحياة العباسية، بدأت تتطور بظهور الحرف، والصنائع المختصة،
وتنامي الجدل الفكري بين أهل العقل، وأهل النقل^(٢٤)، والذي واكبه تطوّر
في مفهوم الشّعْر، واتساع الهوة بين مطبوعه، ومصنوعه، وتحوّل التفاسير
الماورائية، والحرافية، والتركيز على النص الأدبي، شعره، ونثره، أثناء التفسير
لا على الشاعر، فكان الانتقال بمستوى الأدبية، من المستوى الشعوري
إلى مستوى التعليل؛ خاصة بعد ما أصبحت الفاعلية الشعرية تقارن بعمل
الخمّر، والسحر، بما لهما من إثارة تتمّ دون رويّة، ولا فكر، ولا اختيار،
كما أخبر ابن سينا، ذلك أنّ الخمرة تجعل الإنسان معرضاً للانفعال، والإثارة
عن غير وعي، ولا اختيار، وكذلك يفعل السحر بالإنسان المصاب، فيصبح
فاقداً لإرادته، خاضعاً لإرادة غيره، وأصبح يقيناً عندهم أنّ الإثارة متولدة
عن الوظيفة الشعرية، وليس عن القول بما يحتويه من أفكار ومعاني،
مطروحة في الطريق، وإنما الأثر في تحيّر اللفظ، كما جاء مع الجاحظ.

هكذا ستنبتق الشعرية العربية كمدرسة تقارب الجميل الأدبي، من فكرة انبثاق الإثارة عن طريق القول، وما يحدثه عدوله عن الكلام العادي من مفاجأة تهزّ المتلقّي، وترمي به في أحضان اللذة، وهذا ما سيجعل الشعريين العرب، يجمعون على ما للجانب البنائي التشكيلي من دور في خلق الإثارة، فبدونه تبطل فاعلية الأدب، وتعطل مهمته، ومن ثمّ أمكن للأدب المضي ضد الممنوعات الدينية، والاجتماعية؛ لأنّ التقيّد يدفع به إلى اللين^(٢٥)، وإعطاء الأولوية لفعل الأدب، ووظيفته، والتركيز على ما يجري في ذهن المتلقّي إبان عملية التلقّي، وهو السبب الذي جعلهم يركزون على ثقافة الأذن، فالمتلقّي: «إذا ورد عليه ما قد ملّه من المعاني المكررة والصفات المشهورة التي قد كثر ورودها عليه مجّه وثقل عليه وعيه فإذا لطف الشاعر لشوب ذلك وما يلبسه عليه فقربّ منه بعيداً أو بعدّ منه قريباً أو جللّ لطيفاً (...) أصغى إليه ووعاه واستحسنه السامع واجتباها»^(٢٦)، إنّ ثقافة الأذن والسماع، كفيّلة بتحديد القيمة، التي تكون في أحد جوانبها ناتجة عن الإثارة المتولدة عن العدول، كما يرى الجاحظ ما دام: «الشيء من غير معدنه أغرب وكلّما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلّما كان أبعد في الوهم كان أطرف وكلّما كان أطرف كان أعجب وكلّما كان أعجب كان أبعد»^(٢٧).

ولأنّ الأديب ممثل بالشاعر، يحدث الإثارة في المتلقّي عن طريق تشكيل المعاني بطريقة تمكنه من: «أن يؤنس النافر الوحشي حتّى يعود مألوفاً محبوباً»^(٢٨)،

وكذلك تمكّنه من أن: «يدخل الموجود في باب المعدوم»^(٢٩)، وهذا كله يعود الفضل فيه إلى فاعلية الشُّعر؛ لأنَّ الشاعر العظيم، هو الشاعر الذي يعبر عن التجربة الإنسانية، ويقدم من خلال الفردي ما هو إنساني شامل، حيث يتمّ تغييب ملامح الفرد في مقابل إظهار ملامح الإنسان حتى تغدو التجربة الفردية للشاعر/الإنسان، تجربة مشتركة بين جميع الناس ف: «المحسن من الشعراء فيه هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كلّ ذي وجد حاضر أو دائر أنه يجد أو قد وجد مثله حتّى يكون للشاعر فضيلة الشُّعر»^(٣٠)، وعليه يترتب فعل الإلذاذ فيكون من آثاره أن: «يلتدّ الفهم بحسن معانيه»^(٣١)، وخاصة لما يكشف المتلقّي ما كان متحجّباً خفياً، وبخاصة عندما يقتصر الشاعر في أشعاره: «أشياء هي قائمة في النفوس والعقول فتحسن العبارة عنها، وإظهار ما يكمن في الضمائر منها، فيتهج السامع لما يرد عليه مما قد عرفه طبعه، وقبله فهمه، فيثار بذلك ما كان دفيناً، ويبرز به ما كان مكنوناً فينكشف للفهم غطاؤه فيتمكّن من وجدانه بعد العناء في نشدانه»^(٣٢).

غير أنّ معالم الشعرية كنظرية تدرس الجميل الأدبي، بدأت منطلقة من الوعي بخصوصية النص الشعري، اعتماداً على الملاحظات النقدية المباشرة التي تكشف تلك الخصوصية، والتي سعت إلى تسميتها، ومثّلت لها، أو حاولت أن تعرفها بشتى الطرق، وعياً من النقّاد أنّ هناك تفاضلاً في الكلام، وأنّ الشُّعر هو أرقى أنواع الكلام البشري^(٣٣)، ومن ثمّ كانت الحجّة

قائمة على الشعريين العرب، بملاحقة الشعرية فيه، وكان التنظير للشعر من خلال ذلك، وهذا لا ينفي أبداً أنّ الشعريين العرب القدامى لم يلاحقوا الشعرية في النثر، بل كان النص القرآني بإعجازه البلاغي، أحد أهم محركي التنظير للشعرية العربية، لما له من خصائص مشتركة مع الشعر، فكانت القراءة في الإعجاز القرآني من المساهمات الهامة، في تكوين الدراسات الشعرية العربية، وهي تشتغل بالشعر، وتلاحق قوانين الشعرية فيه، وفي الآن ذاته تبحث عن سرائر جودة القرآن، وإعجازه، فكان أن أصبح التنظير للشعر في حد ذاته، تنظيراً للشعرية التي تتجلى في النثر، مثلما تتجلى في الشعر، لكن مع اختلاف في الدرجة التي تكون على أشدها في الشعر.

ولهذا كان تركيز الشعريين العرب على الشعر، باعتباره من الكلام الجيد؛ الذي تتوافر فيه صفات منها: جودة الإفهام، والإلذاذ، والإمتاع، باستثناء البعض منهم، الذين حاولوا تجاوز النص الشعري في بحثهم عن الشعرية، إلى القول بصفة عامة؛ لما وجدوه من تداخل بين الجنسين، فإذا كان المرزوقي مثلاً، يؤكد المنحى التداخلي في استخدامه لفظ (نظم) حين حديثه عن النثر: «فإذا كان النثر - بما له من تقاسيم اللفظ والمعنى والنظم - اتسع نطاق الاختيار فيه على [ما] بيناه بحسب اتساع جوانبها وموادها، وتكاثر أسبابها ومواطنها، وكان الشعر قد ساواه في جميع ذلك وشاركه، ثم تفرّد عنه وتميّز بأن كان حدّه (لفظ موزون مُقَفَّى يَدُلُّ على معنَى) فازدادت صفاته التي أحاط الحدُّ بها بما انظمّ من الوزن والتقفية إليها ازدادت

الكُلف في شرائط الاختيار فيه ، لأنّ للوزن والتقفية أحكاماً تماثل ما كانت للمعنى واللفظ والتأليف أو تُقارب»^(٣٤). فإنّه يعالج المسألة تقابلياً^(٣٥) ، بخلاف ابن طباطبا، الذي يعدّ واحداً من أكثر النقاد الذين سلكوا طريقاً تحكّمه الرؤية التكاملية ، فهو واحد من الذين يغلب على آرائهم الاهتمام بشعرية القول بصفة عامة ، قبل شعرية جنس الشعر ، يقول : «فمن الأشعار أشعار محكمة مُتقنة ، أنيقة الألفاظ ، حكيمة المعاني ، عجيبة التأليف ، إذا نُقضت وجُعلت نثرًا لم تبطل جودة معانيها ، ولم تفقد جزالة ألفاظها»^(٣٦) ، ويدعو ابن طباطبا الشاعرَ إلى أن يسلك : «منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في مكاتباتهم ، فإنّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل»^(٣٧) ، أمّا القاضي الجرجاني ، فيؤكد هذا المنحى الفني التكاملي ، في مثالية القواعد النقدية الشعرية ، التي يرى بأنها صالحة للتطبيق على النثر : «وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصود على الشعر دون الكتابة ولا مختص بالنظم دون النثر»^(٣٨).

ومن هذا المنظور ، تكون الشعرية ، كمنظرية تبحث عن الجميل الأدبي ، أو تحاول أن تعلّل أسباب تسامي الكلام الأدبي عن الكلام العادي ، قد دخلت في تعارض مع البنى الأخلاقية ، والاجتماعية ، والدينية ، السائدة وقتها . إلى جانب ذلك ، نجدهم أيضاً قد دخلوا في تعارض مع البنية اللغوية السائدة وقتها ، نتحسس هذا الوعي بضرورة قيام علم جديد ، بعيداً عن التناول اللغوي للأدب من مجموعة من النصوص لشعراء أمثال : رؤبة ،

وبشار بن بُرد، والبحتري، ويبدو أنّ المَعارك التي جرت بين النحويين والشعراء من جهة، وبين النحويين ونقاد الأدب من جهة أخرى، كانت سبباً مباشراً في الدفع بالشعرية إلى أن تؤسس نفسها كعلم قائم بذاته. لقد دأب النحاة، ولفترة طويلة على توجيه لغة الشعراء بملاحظاتهم، التي كانت ترفض في غالب الأحيان، ورأى الشعراء فيها قصوراً عن تبيين أسرار العربية، وعجمة ناتجة عن تحكيم المنطق، ومقاييس النحو، الذي لا يمكن إذلال الأدب لها، ولما كان الشعراء أرباب الكلام، والعارفين بمضاييقه، كان في مقدورهم تبيين الجيد من الرديء في أشعارهم، وأشعار غيرهم، ونسجل هنا تباهي رؤية بقدرته على تبصر كلامه، وانتقاده انتقاداً لا يقدر عليه النحاة، يقول في إحدى أراجيزه:

«لا ينظرُ النحويُّ فيها نظري وإن لوى حَيِّه بالتحكُّر»^(٣٩)

ويقول في أرجوزة أخرى:

«وأنا في تحيُّرٍ وجدِّي إذا تنخَّلتُ جِياَدَ القَدِّ

يلتمسُ النحويُّ قَصْدِي»^(٤٠)

أمّا بشار بن بُرد، فقد أنكر على اللغويين من أمثال يونس، أو أبي عبيدة، مقدرة الحكم بين جرير والفرزدق، وبأنّ حكماً كهذا: «ليس من عمل أولئك القوم، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله»^(٤١)، وما يمكن قوله هو أنّ موقف الشعراء من اللغويين، والنحاة يكاد يتشابه، فالبحتري مثلاً، ينكر على ثعلب وأقرانه من اللغويين القدرة على الحكم في الشعر؛ لأنه علم لا يعلمه إلا:

«من دُفع في سلك طريق الشعر إلى مضايقه وانتهى إلى ضروراته»^(٤٢)، ولعل موقف البحري من ثعلب يوضح بشكل جليّ موقف الشعراء من المؤدبة، ويدعم القول التالي، الموقف الذي اتخذه البحري من ثعلب: «أخبرني عبد الله بن جعفر بن درستويه قال: أخبرني عليّ بن العباس النوبختي قال: رأيتُ البحريّ يوماً ومعني دفتر، فقال: ما هذا؟ قلتُ: شعرُ اليشكوريّ، قال: وإلى أين تمضي؟ قلتُ: إلى أبي العباس ثعلب أقرأه عليه. قال: قد رأيتُ أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة، فما رأيتُه ناقدًا للشعر ولا مميّزًا للألفاظه، ورأيتُه يستحسن شيئاً وينشده، وما ذلك بأحسن الشعر ولا بأفضله. قال: فقلتُ: أمّا نقدُه وتمييزه فهذه صناعة أخرى، ولكن هو أعرّف الناس بإعراب الشعر وغيره»^(٤٣).

يتضح مما سلف، أنّ هناك تسليماً للشعراء في هذا المجال، بقصور اللغويين أو ما عرفوا بـ(المؤدبة)، وفق مقولة: «إنما يحكم في الشعراء الشعراء لا المؤدبة»^(٤٤)، وفي مقابل النصوص السابقة، وجدت نصوص أخرى تثني على فئة النقاد، القادرة على نقد الشعر، وتحديد شروط الجودة، والرداءة فيه، بخلاف النحويين، واللغويين، الذين تركزت جهودهم في الدرس النمطي، الدائر حول المسائل اللغوية، والنحوية، أمّا الجهود النقدية، فتركزت عند فريق من النقاد في تناولهم البعد الفني، في بلاغة القرآن، والشعر بصفة خاصة.

٤. انبثاق الشعرية العربية كمدرسة تقارب الجميل الأدبي:

لما كان مستوى التحليل الفني، يحتاج في نظر النقاد إلى مستوى آخر من

الثقافة، والاستعداد، كان لزاماً عليهم البدء في تأسيس هذا العلم، ولعل مقولة الجاحظ تبرز بشكل جليّ هذا التقابل، يقول: «طلبتُ علمَ الشُّعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعتُ إلى الأَخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما أتصل بالأخبار وتعلّق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردتُ إلا عند أدباء الكُتّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات»^(٤٥)، ومؤدّى هذا الكلام أنّ كل واحد من هؤلاء العلماء يبحث في النص الأدبي، عمّا يهّمه من موضوعات تدخل في اختصاصه، فيضحى الأدب وثيقة من الدرجة الثانية كما قال جاكوبسون، أمّا الناقد الأدبي، فيعتبر أنّ: «فنّ الفصاحة والبلاغة غير فنّ النحو والإعراب»^(٤٦)؛ لأنّ: «أسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية، وإنّما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية، أو نقل كلمة لغوية، وما جرى هذا المجرى، وأمّا أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها»^(٤٧)، وبالتالي فإنّ: «النحاة لا فُتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة»^(٤٨).

لهذه الأسباب، يحاول قدامة بن جعفر، كواحد من أعلام الشعرية العربية، أن يقدّم نفسه في بداية كتابه على أنه أول من سيبادر بتحديد علم يُعرف به الشُّعر الجيّد من الرديء^(٤٩)، ولعدم انتباه الناس والنقاد لهذا القسم من علم الشُّعر: «لم أجد أحداً وضع في نقد الشُّعر، وتلخيص جيده من رديئه، كتاباً»^(٥٠)؛ ورأى قدامة أنه بهذا العمل، سيخلص معاصريه من

فوضى الأحكام النقدية، عن طريق التأصيل النظري الصارم للشعر؛ لأنّ الناس: «يخبطون في ذلك - علم جيّد الشعر من رديئه - منذ تفقّهوا في العلوم، فقليلاً ما يصيبون»^(٥١)، فبفضل هذا العلم، يمكن تحديد القيمة الشعرية، وتجاوز الأحكام الانطباعية، إلى نطاق يسمح بتجانس المفاهيم والتصورات، إنه علم تمييز الجيّد من الرديء.

٥. بدايات التأسيس لبنية متعالية:

إنّ الجهد النظري، الذي بدأه الجاحظ لن يدوم طويلاً، فالآمدي الذي يعدّ ناقداً تطبيقياً، نراه في "موازنته" يركّز على الطبيعة العلائقية، النسقية على مستويين: أولهما المستوى الخاص بالنص الشعري، وثانيهما المستوى الذي يتصل فيه هذا النص، نسقياً بغيره من النصوص داخل بنية كبرى تتجلّى فيه، وبه في الآن ذاته، فالشعر عند أهل العلم ما هو إلا: «حسن التأتّي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه، المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لاثقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه»^(٥٢)، إذن فهذه البنية الكلية، هي الواجب توافرها في النص الجيّد، حسب النقّاد، و«...وتلك طريقة البحثري»^(٥٣).

والشعرية ما هي إلاّ تلك البنية المتعالية، في شكل الغائب الحاضر، والعلّة الأولى، التي تعمل على شعرنة الكلام، الذي لا يمكن أن يصل درجة الشعرية (الصفة)، إلا إذا جلّى هذه البنية المتعالية، وقد حاول الآمدي

تبرير ذلك، بداية بتقديم الأحكام الجمالية، التي يقيّم بها الشعر في عصره، فخلص إلى أنها متباينة في عصره، وفي كل العصور، لاختلاف الناس في الأذواق: «لم يتفوقوا على أيّ الأربعة أشعر في امرئ القيس والنابغة، وزهير والأعشى، ولا في جرير والفرزدق والأخطل، ولا في بشّار ومروان والسيد، ولا في أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم، لاختلاف آراء الناس في الشعر، وتباين مذاهبهم فيه»^(٥٤).

وينتهي الأمدي، إلى حصر الاتجاهات النقدية في اتجاهين رئيسين: اتجاه يستحسن الغموض في المعاني، والتدقيق الفلسفي، واتجاه يرى أنّ الجمال كامن في الأشعار، التي تشاكل أشعار الأوائل، غير أنه في آخر مصنّفه، يكشف لنا عن اتجاه ثالث، يرى أنّ الشعرية قد تكون متلبّسة بالنص الذي معناه ظاهر، وبنفس الدرجة التي قد تتلبّس النص الغامض، وهو اتجاه يجمع بين الاتجاهين، من خلاله يحاول الأمدي، التأكيد على بقاء الذوق العربي متنوعاً، وتملكه للنفس العربية، وإن كان الأمدي قد حاول أن يبيّن، بأنّ هذا التعدد في الذوق العربي، ما هو إلاّ سلسلة متواصلة، لا انقطاع بين حلقاتها الممثلة بفئتي: المتقدمين، والمتأخرين (المحدثين)، أي التواصل بين القيم التي كرستها التقاليد الشعرية العربية، وبين القيم الشعرية التي كان ينادي بها المحدثون، وقد ساهم هذا الجهد النقدي في أحد جوانبه، في تكريس مفهوم الشعرية، على أنها بنية متعالية، خوفاً من فساد الشعر العربي، مثل ما فسد الذوق العربي، وهو الانشغال ذاته، الذي

نجده عند كل من ابن طباطبا، والآمدني، والقاضي الجرجاني، الذين عملوا على تكريس هذا الفهم للشعرية، ووجد المرزوقي الطريق معبداً أمامه، ليحدد هذه البنية المتعالية، التي وسمها "عمود الشعر العربي"، والتي بها يمكن معرفة، وتمييز: «تليد الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث»^(٥٥). وتتماز هذه البنية في شعر العرب ب: «أنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف -ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت له سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات- والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتثامها على تحيُّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه المستعار له، ومشاكله اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار»^(٥٦).

وقد ساعد هذا الفهم للشعرية، على تصورهما في شكل بنية كبرى للقوانين، يتجلى حضورها في الأبنية الصغرى للأعمال الشعرية، سواء على مستويي: التركيب، أو الإيقاع، أو على مستوى الدلالة، فتصبح الأبنية الصغرى، وعلى نحو تبادلي محيلة على البنية الكبرى، إحالة المعلول إلى العلة، أو بعبارة أكثر دقة، إشارة المجلي للأصل، وهذا ما دفع بالمرزوقي إلى أن يضع معايير توزن بها الأبواب السبعة، المكونة لعمود الشعر، وهي عناصر صدرت عن طريقة العرب في قول الشعر، وما محاولته إلا تبيين لهذه العناصر الناضجة، التي ينبغي الإبقاء عليها، للحفاظ على الشعرية

العربية، وإن كان المرزوقي واقعاً في أسر التقليد، إذ عدّ طريقة الشعراء العرب في عصور العربية التي سبقتة، هي الأصل، ناظراً إلى العصر الجاهلي على الخصوص، بأنه المرتكز الأساس، لفهم طريقة العرب في القول الشعري، أي أنه جاء بمعايير، أو قواعد قديمة، تقليدية، مستقاة من جودة نص سابق، وقديم، واحتكم إليها في بيان جودة الشعر اللاحق كلّ.

ويمكن التعرف على المعايير السبعة، كما وردت عند المرزوقي، وهي: «...فيعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جنبنا القبول والاصطفاء، خرج وافياً، وإلا انتقص بمقدار شوبه ووحشته. وعيار اللفظ، الطبع والرواية والاستعمال، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم.. وعيار الإصابة في الوصف، الذكاء وحسن التمييز، فما وجداه صادقاً في العلوّق، مازجاً في اللصوق، يتعسّر الخروج عنه والتبرؤ منه، فذاك سيماء الإصابة فيه... وعيار المقاربة في التشبّه، الفطنة وحسن التقدير، فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس، وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما، ليبين وجه التشبيه بلا كلفة... وعيار التحام أجزاء النظم والتثامه على تحيّر من لذيذ الوزن، الطبع واللسان، فما لم يتعثّر الطبع بأبنيته وعقوده، ولم يتحبس اللسان في فصوله ووصوله، بل استمرّ فيه واستسهلاه، بلا ملال ولا كلال، فذلك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة، تسألماً لأجزائه وتقارناً. وعيار الاستعارة، الذهن والفطنة، وملاك الأمر

تقريب التشبيه في الأصل ، حتى يتناسب المشبّه والمشبّه به ، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعار ، لأنه المنقول عمّا كان له في الوضع إلى المستعار له. وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية ، طول الدربة ودوام المدارس... وأمّا القافية ، فيجب أن تكون كالموعود المنتظر ، يتشوّقها المعنى بحقّه واللفظ بقسطه»^(٥٧).

وبعد تحديد المرزوقي لهذه المعايير المكوّنة للبنية الكبرى ، كعلة تتكون من مجموعة من علل صغرى ، تنعكس على معلولاتها بدرجات مختلفة ، يقول المرزوقي : «فهذه الخصال هي عمود الشّعْر عند العرب ، فمن لزمها بحقها وبنى شِعْره عليها ، فهو عندهم المغلق المعظم ، والمحسن المقدّم ، ومن لم يجمعها كلّها فبقدر سُهْمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان ، وهذا إجماعٌ مأخوذ به وامتّبع نهجه حتى الآن»^(٥٨).

هكذا ، غدت الشعرية صورة أخرى من الكلّ ، الذي لا نراه يتجلّى إلّا في جزئياته المكوّنة له ، والتجليات التي لا نراها شعيرية (الصفة) ، إلّا من خلال هذا الكلّ ، الذي ليس سوى إياها ، ويؤكد الدكتور عبد المنعم خفاجي وجهة النظر هاته ، حين عرّف عمود الشّعْر بأنه في جوهره : «كلّ التقاليد الفنية التي التزمها القدماء في قصائدهم : في الأفكار والمعاني والأخيلة والأوزان والقوافي والألفاظ والأساليب والصور وغيرها ، فهذه التقاليد هي الشّعْر الذي حتم الكثير من النقاد التزامه ، والسّير على منواله»^(٥٩) ، وبذلك تكون الشعرية قد انتقلت من البحث عن الجميل الأدبي إلى البحث

عن ماهيتها، كبنية كلية متعالية، ذات خصائص عامة، تكتشف بدراسة العمل الأدبي، الذي تقترن به، لترى من داخله ما هو وراءه، وأدى هذا إلى ظهور نوع من الحرج النقدي، خاصة وأنّ مجال الإبداع قد ضيق على المحدثين، لأنّ السير على المنوال، لا يؤول في نهاية المطاف إلى نتائج مرضية؛ لأنّ هذه التقاليد الفنية (عمود الشعر) مستقاة من القصيدة الجاهلية، والإسلامية، وهذا يعني أنّ بلوغ غاية الجودة، والحسن، أمر مستحيل مادام القدماء قد أتوا بالمثل الأعلى في قصائدهم، وابن طباطبا العلوي واحد من الذين بدا عليهم هذا التحرج، من خلال قوله: «والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم؛ لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلاصة ساحرة، فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يُربى عليها، لم يُتلقَ بالقبول، وكان المطروح المملول»^(٦٠).

وقد أحسّ القاضي الجرجاني نفسه بوضعية شعراء عصره الصعبة، منصفاً إياهم، متلمساً العذر للمقلّ منهم: «لأنّ أحدهم يقف محصوراً بين لفظٍ قد ضيق مجاله، وحذف أكثره، وقلّ عدده، وحُضِرَ معظمه، ومعانٍ قد أخذ عفوها، وسبق إلى جيدها، فأفكاره تنبث في كل وجه، وخواطره تستفتح كل باب، فإن وافق بعض ما قيل أو اجتاز منه بأبعد طرف قيل: سرق بيت فلان، وأغار على قول فلان، ولعل ذلك البيت لم يقرع قطّ سمعه، ولا مرّ بخلده؛ كأنّ التوارد عندهم ممتنع، واتفاق الهواجس غير ممكن،

وإن افترع معنًى يكرراً، أو افتتح طريقاً مبهماً، لم يرض منه إلا بأعذب لفظ وأقربه إلى القلب... فأحسانه يُتأول، وعيوبه تُتمحل»^(٦١).

وأمام هذه المحنة، يتنازل ابن طباطبا للمحدثين عن بعض أصول العمود الشعري، فلا يطلب من المحدثين إيراد الحقائق كما هي، والتزام الشاعر الصدق، وإنما المهم بالنسبة له، أن يقول الشاعر شعره في عبارة جميلة، ولفظ أنيق، حتى ولو كان فيه نوع من الغرابة في المعنى، وبالتالي ركز الشعراء المحدثون على الصياغة اللفظية، كما وجدوا في صور المحسنات اللفظية، التي عرفت بمصطلح البديع بداية لعهد جديد من الإبداع، ويسجل لنا ابن المعتز وجود هذه الظاهرة الإبداعية الجديدة، التي انفلتت من البنية المتعالية (عمود الشعر) في القرآن، وفي الحديث، وفي كلام العرب، وفي أشعار المتقدمين، أما المخالفة فتكمن في الإسراف، والإكثار، حتى خرجت بالشعر عن النهج.

(للبحث صلة)

الهوامش:

* جامعة الشلف - الجزائر.

- (١) رشيد يحيى، شعرية النوع الأدبي في قراءة النقد القديم، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩٤، ص ٩٣.
- (٢) محمد الولي، المدخل إلى بلاغة المحسنات (مقال) مجلة فكر ونقد، ع ٨. (النص منقول من كتاب): Jose Gonzalez Vasquez, Sobre la imagen, poetica, Universidad de Granada, ١٩٨٠ p. ٥٠.

- (٣) ج. هيو سلقرمان، نصيَّات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٢٦٠.
- (٤) Ducrot (Oswald) et Todorov (Tzvetan), Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p. ٩٩.
- (٥) القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح. أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ص ٣١-٣٢.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٢٧.
- (٧) المصدر نفسه، ص ١٨٨.
- (٨) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٧، ١٩٩٨، ج ١، ص ٢٤٠.
- (٩) ابن قتيبة، أبو محمد الدينوري، الشعر والشعراء، أو طبقات الشعراء، تح: مفيد قميحة ومحمد أمين الضناوي، ص ٧٢-٧٣.
- (١٠) المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، الموشح (مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر)، تح: محمد البجاوي، ص ٣٢-٣٣.
- (١١) الخطابي، أبو سليمان، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ص ٦٤.
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٦٤.
- (١٣) سورة المائدة، الآية: ٨٣.
- (١٤) ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن محمد بن أحمد، عيار الشعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المناع، الرياض، ١٩٨٥، ص ٢٠٣.
- (١٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١.
- (١٦) القاضي الجرجاني، الوساطة، ص ٤١٢.
- (١٧) ابن رشيقي القيرواني، أبو علي الحسن، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح: النبيي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠، ج ١، ص ١٩٢.

- (١٨) ينظر الموشح للمرزياني، وكذا جمهرة أشعار العرب للقرشي، انظر كذلك الدراسة التي قدمها عبد الرزاق حميدة: **شياطين الشعراء** (دراسة تاريخية نقدية مقارنة تستعين بعلم النفس) مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، د.ت.
- (١٩) ينظر عبد الجبار المطلبي، **الشعراء نقاداً**، بغداد، ١٩٨٦، ص ٤٦-٤٧.
- (٢٠) وخير الشعر أكرمه رجالاتنا وشعر الشعر ما قال العبيد (الوافر) انظر: ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ص ٢٤٥.
- (٢١) ولزهير كذلك من البسيط:
وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
انظر: قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، ص ١٥٠.
- (٢٢) ابن قتيبة، أبو محمد الدينوري، **الشعر والشعراء**، أو طبقات الشعراء، تح: مفيد قميحة، ومحمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥، ص ٣٦٩.
- (٢٣) انظر: توفيق الزبيدي، **مفهوم الأدبية في التراث النقد إلى نهاية القرن الرابع الهجري**، سراس للنشر، تونس، ١٩٨٥، ص ٣٨-٤٣.
- (٢٤) تابع حسن مروة، أطوار الجدل الفلسفي بين أصحاب العقل وأصحاب النقل؛ انظر كتابه: **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**، دار الفارابي، بيروت، ط ١، ١٩٨٨.
- (٢٥) انظر: المرزياني، **الموشح**، ص ١٥، وابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ص ١٧٤.
- (٢٦) ابن طباطبا، **عيار الشعر**، ص ٢٠٢.
- (٢٧) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ٨٩-٩٠.
- (٢٨) ابن طباطبا، **عيار الشعر**، ص ١٢١.
- (٢٩) المصدر نفسه.
- (٣٠) قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ١٣٦.

- (٣١) ابن طباطبا، **عيار الشُّعر**، ص ٦.
- (٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.
- (٣٣) الجاحظ، **الحيوان**، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٣٨، ج ١، ص ٩٧.
- (٣٤) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، **شرح ديوان الحماسة لأبي تمام**، تعليق غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣، مج ١، ج ١، ص ١٠.
- (٣٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥-١٨.
- (٣٦) ابن طباطبا، **عيار الشُّعر**، ص ١١.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص ٩.
- (٣٨) القاضي الجرجاني، **الوساطة**، ص ٢٤.
- (٣٩) يوهان فك، العربية، ص ٢٩-٣٠.
- (٤٠) المرجع نفسه.
- (٤١) الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣، ص ١٧٧.
- (٤٢) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
- (٤٣) الحاتمي، محمد بن الحسن (ت ٣٨٨هـ)، **حلية المحاضرة في صناعة الشُّعر**، تح: هلال ناجي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨، ج ١، ص ١٩٩-٢٠٠.
- (٤٤) ياقوت الحموي، **إرشاد الأريب**، ط: رفاعي، ج ٧، ص ١٨٨-١٨٩.
- (٤٥) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ص ٢٤.
- (٤٦) ابن الأثير، ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ج ١، ص ٣٨٣.
- (٤٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٨.

- (٤٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٤.
- (٤٩) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ص ٦١، ٦٢.
- (٥٠) المصدر نفسه، ص ٦١.
- (٥١) المصدر نفسه، ص ٦٢.
- (٥٢) الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي،
وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحر الطائي، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد،
ص ٣٨٠.
- (٥٣) المصدر نفسه.
- (٥٤) المصدر نفسه، ص ١١.
- (٥٥) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج ١، ص ١٠.
- (٥٦) المصدر نفسه، ص ١٠.
- (٥٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠-١٢.
- (٥٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢.
- (٥٩) محمد عبد المنعم خفاجي، فصول في الأدب والنقد، مطبعة صبيح، القاهرة، د.ت.
ص ٨٢.
- (٦٠) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ١٣.
- (٦١) القاضي الجرجاني، الوساطة، ص ٥٢.

السفينة في المعجمية العربية قراءة في آفاق القدرة والمرونة اللغوية

بقلم: د. خالد فهمي إبراهيم ❖

يمثل مشكل العلاقة بين العربية والمنجز الحضاري مفردة من مفردات البحث اللساني والمعجمي، يقع في الصميم من اهتماماته ومشاغله. ومثل سلاحاً من طرفي المتحيزين لكل فئة، من المنتصرين لضرورة تعريب العلوم، ومن المخاصمين للتعريب، المدافعين عن استيراد العلوم بوعائها اللساني الذي أنتجها!

وفي هذا البحث محاولة لفحص أبعاد القدرة والمرونة التي منحتها العربية لواحد من أظهر تجليات الحضارة المادية الجديدة على الحياة العربية، وهو حقل السفينة وألفاظه ومصطلحاته في اللسان العربي.

وسعيًا إلى هذه الغاية يعالج هذا البحث المطالب التالية:

- ١- مدخل: البحر وجهة جديدة للعربي المسلم!
- ٢- السفينة في المعجم العربي: المدونة والعلاقات المعرفية:
(١/٢) المدونة (معجمات السفينة في العربية).
(٢/٢) علاقات السفينة المعرفية.

٣- مصطلح السفينة : قراءة في نتائج التأصيل اللغوي.

٤- مصطلح السفينة : أنماطه ودلالاته.

٥- آفاق استثمار البحث المعجمي في مصطلح السفينة.

إنّ أمثال هذه البحوث المعجمية تعي وضعها الذي يراوح مناطق البحث المعجمي ، وعلم المصطلحات والسياسات اللغوية ، وتاريخ اللغة. وهو نوع من بحوث التحيز بالمعنى المنهجي الذي يتعاطف مع منجز هذه الحضارة ، التي فجرها الكتاب العزيز!

وهو كذلك نوع من بحوث المعجمية التطبيقية والنظرية معاً الذي يمكن بوساطته فحص بعض الإشكالات التاريخية في المجال المعجمي ، والإسهام في اتخاذ قرار سلبي أو إيجابي بشأنها ، ولا سيما في ظل استمرار الجدل الدائر حول كثير منها إلى اليوم في الأوساط المتخاصمة فكرياً / أو أيديولوجياً في الأساس.

لقد بات واضحاً أنّ "اللغة تقع في قلب هذا الصراع"^(١) على هوية مصر على الأقل ، وهو ما قد يكون صحيحاً في كثير غيرها من بلدان المنطقة العربية. ولعل اختيار هذه المناطق الجديدة من المعجمية بأبعادها النظرية (التاريخية) والتطبيقية من جانب والمشتبكة بعلم المصطلحات من جانب آخر تكون طريقاً واضحة وناجزة لفحص كثير من المشكلات العالقة في هذا الباب.



(١) مدخل : البحر وجهة جديدة للعربي المسلم!

(١/١) خطاب التأسيس.

معلوم جيداً أنّ القرآن الكريم مثل نقطة تحوّل جوهري في تكوين العقل العربي في رؤية الكون والحياة من جوانبها جميعاً. لقد جاء ذكر القرآن الكريم للبحر متنوّع التصريف، فكانت قائمة استخدامه لتصريفاته كما يلي^(٢):

أ- بحر / بالإنفراد في ثلاث وثلاثين مرة (٣٣ مرة) (نكرة / ومعرفة).

ب- بحران / بالثنائية في خمس مرات (٥ مرات) (نكرة / ومعرفة).

ج- بحار / أبحر بالجمع ثلاث مرات (٣ مرات) (٢ بحار / ١ أبحر).

أي أنّ مجموع ما جاء هو إحدى وأربعون مرة (٤١ مرة)، وقد أحاطت بها العلامات التالية:

أولاً- توزع استخدامها على القرآن المكي والمدني.

ثانياً- توزع استخدامها موضوعياً، بمعنى استخدامها في سياق الإخبار، والقصص، وفي سياق التذكير بنعمة الله، وفضله، وقدرته سبحانه، وفي سياق المستقبل تحذيراً من وعيد الله تعالى.

ثالثاً- تنوع وظائف استخدامه، بمعنى أنّ الذكر الحكيم استخدم تصاريف البحر، إفراداً وثنائيةً وجمعاً لتحقيق وظائف متنوعة من مثل:

أ- إثبات صدق الرسالة؛ الإنباء عن الغيب الماضي

ب- الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالدلالة على براهين قدرته في البحار،

وما يسيره فيها، وما يخرج منه.

ج- التنوع في دعوة المخاطبين بالترغيب ، والترهيب والإقناع.

د- إثبات صدق النبي ﷺ في نبوته.

هـ- فتح آفاق للأمم للنهوض الحضاري بتوظيفهم للبحر، طريقاً للنقل والمواصلات، ومصدراً للغذاء والثروة، ومجالاً للتصنيع والطاقة... إلخ.
ثم إن طائفة من هذه الآيات التي جاءت في الكتاب العزيز وردت مقترنة بذكر ما يدل على السفينة، فقد جاء البحر مقترناً بما يلي:

أولاً- البحر / الجواري.

ثانياً- البحر / السفينة.

ثالثاً- البحر / الفلك.

وإليك قائمة هذه الاستخدامات:

أولاً- البحر / الفلك (=السفن).

وقد جاء الاقتران بين البحر والفلك أكثر علاقات الاقتران الثلاثة تكراراً في المواضع التالية:

- سورة البقرة ١٦٤/٢ : (وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ).

- سورة إبراهيم ٣٢/١٤ : (وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ).

- سورة الإسراء ٦٦/١٧ : (رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ).

- سورة الحج ٦٥/٢٢ : (سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ).

- سورة لقمان ٣١/٣١ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ).

ثانياً- البحر/ الجوّاري (السفن).

وقد جاء الاقتران بين البحر والجوّاري في المرتبة الثانية من جهة الاستخدام كما يلي :

- سورة الشورى ٣٢/٤٢ : (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ).

- سورة الرحمن ٢٤/٥٥ : (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ).

ثالثاً- البحر/ السفينة.

جاءت العلاقة (البحر/ السفينة) في المرتبة الأخيرة إحصائياً، في موضع واحد هو قوله تعالى :

- سورة الكهف ٧٩/١٨ : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ).

وثمة علاقة أخرى بين البحر/ والسفينة، لكنها علاقة تضمينية؛ أي لم يصرّح فيها بلفظة (الفلّك/ أو الجوّاري/ أو السفينة)، ولكنها متضمنة في سياق الآيات في المواضع التالية :

- سورة المائدة ٩٦/٥ : (أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ) ولا يكون الصيد بغير مركب.

- سورة الأنعام ٦/٦٣: (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) ولا تكون النجاة من ظلمات البحر إلا بعد ركوبه.

- سورة الأنعام ٦/٩٧: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ).

- سورة يونس ١٠/٢٢: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) والسير في البحر يلزمه سفينة!

- سورة النحل ١٦/١٤: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِبًا) ولا يكون الأكل من لحم البحر إلا بعد الصيد، ولا يكون إلا بعد ركوبه.

ففي هذه المواضع جميعاً قرائن تفرض حضور الفلك أو الجوّاري أو السفينة بما هي أدوات السير والصيد في البحر.

إنّ هذا الاستخدام لأنواع السفن المتضمنة في الآيات والمستنبطة بحكم تنوّع الأوصاف والقرائن اللفظية والعقلية المطيفة بها قاطعة في أنّ العرب كانوا على معرفة بالبحر، وركوبه وسفنه ولو تاريخياً! وهو الأمر الذي استثمره الكتاب العزيز في اتجاهات كثيرة خادمة لفكرته الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الحضارية.

(٢/١)

من جانب آخر فإنّ فحص ما ورد في السنة المشرفة مما يتعلق بالبحر يلمس نوعاً من اتساع آفاق النظر إليه في وجهة العقل العربي المسلم؛ فقد

وقف الفقهاء أمام مجموعة الأحاديث واستنبطوا منها أبواباً كاملة تفضي إلى هذا الذي نذهب إليه ومما يمكن التنبه إليه في هذا السياق ما يلي:

أولاً- حِلُّ ما يلقيه البحر من طعام.

ثانياً- إحلال غزو البحر، وما يتعلّق به من شهيد البحر، وثوابه.

ثالثاً- شيوع النظر إليه باباً لتقدير عظمة الله تعالى، واستطالة قدرته سبحانه. إنّ مراجعة السنّة في هذه المحاور مهم جداً؛ لتكملة بيان ما نفذ منها ومن الكتاب العزيز إلى بنية الثقافة العربية، واستقر فيها من النظر إلى البحر وما نشأ بسبب من صناعات حضارية تتعلق بمعجم السفينة.

وسنعمد ما ورد في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، لفنسنك^(٣)

في بيان أمثلة الأحاديث الكاشفة عن هذه المحاور:

أولاً- البحر/ الطعام:

"البحر الطهور ماؤه، الحِلُّ ميتته".

"كانا لا يريان بما لفظ البحر بأساً".

ويستفاد من مثلها حِلُّ طعام صيد البحر، وما تلقيه من أرزاقها، وأسماكها.

ثانياً- البحر/ الجهاد:

"لا يركبون ثبج هذا البحر".

"فغزا في البحر فحملها معه".

"غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر".

"المائد في البحر كالمشمط في دمه في البر".

ثالثاً- البحر / دليل عظمة الله وقدرته :

"حطت عنه خطاياها، وإن كان مثل زبد البحر".

"أمر الله البحر فجمع ما فيه".

"حلف بالله الذي فلق البحر لموسى".

ويستفاد منها تقدير الصفات الإلهية من باب هيمنته سبحانه على البحر

في التصور الثقافي العربي المدعوم بالأخبار والتاريخ والمشاهدات.

وتتشعب العلاقات التي تدخل السفينة والفلك طرفاً بدرجة أكبر مما هي

عليه في العلاقات التي ظهرت من فحص آيات الكتاب العزيز، وهو أمر منطقي

له ما يسوغه؛ لأنّ السّنة المشرّفة هي النصّ المفسّر، الموضّح للذكر الحكيم.

وفحص هذه العلاقات كاشفة عن أبعاد الوجهة الجديدة التي نزلت في

العقل المسلم بسبب روح الإسلام، ومما يظهر من نصوص الأحاديث ما

يلي^(٤):

أ- السفينة/ النجاة: "السفينة نجاة".

ب- السفينة/ زيادة الأجر: "لكم أتم أهل السفينة هجرتان".

ج- السفينة/ الحضارة: "إنها يطلّى بها السفن".

"كأنه جمالات صفر حياة السفن".

د- السفينة/ التجارة والنقل: "أن ركبنا في سفينة بحرية".

"حمل معه في سفينة".

ومن هذه الحقول الأربعة الفرعية يظهر أنّ السفينة دخلت في علاقات كاشفة عن حضور ثقافي وحضاري في بنية العقل العربي، زاد وتشعب بفضل تفاعله مع بقية الخصائص العمرانية والحضارية التي مثلت جزءاً جوهرياً من مقاصد الشريعة الإسلامية.

إنّ أيّ دراسة لفيلولوجيا السفينة في الثقافة والمعجمية العربية، لا يمكن تجاوز ما أحلّه الكتاب العزيز والسنة المشرفة في بنيتها بأيّ حال من الأحوال. وهذه النتيجة ظاهرة جداً من مجموع ما تكشف من تحليل العلاقات التي دخلت فيها السفينة في هذين النصين الجليلين معاً.

صحيح أنّ المتأمل لا يعدم أمثلة لحضور البحر/ السفينة في مدونة النصوص العربية القديمة الجاهلية، لكن هذا الحضور لا يمكن أن يقارن بما أحدثه التصور الإسلامي من خلال الكتاب العزيز والأحاديث النبوية المشرفة في العقل العربي من تمدد لهذا الحضور، أصاب مناطق واسعة جداً وعمّقتها، لدرجة وصلت بالحضارة الإسلامية في زمان ما أن يكونوا سادة البحار بلا منازع على الرغم من عراقة كثير من الأمم الأخرى في علاقتها بالبحر/ السفينة في التاريخ الإنساني.

إنّ التدرع بفيلولوجيا البحر وعلاقته وسيلة معروفة في كثير من المجالات المعرفية الاجتماعية وغيرها على ما نرى مثلاً في صنيع بريدراج ماتفيسجيفتش عندما لاذ بالمعجم ليكتب جزءاً من تاريخ البحر المتوسط في تراويل متوسطة^(٥).

(٢) السفينة في المعجم العربي: المدونة والعلاقات المعرفية.

اتضح من تحليل حضور البحر / السفينة في خطاب التأسيس أنّ هذا الحضور يتجاوز الحدود الأولية، إلى عدد من العلاقات المهمة في بنية الثقافة العربية، وأتاح لها الكتاب العزيز والسنة المشرفة تمددًا وتشعبًا ظاهرين.

وفي هذه النقطة من البحث نقف أمام: السفينة في المعجمية العربية مستهدفين الكشف عن حدود المدونة، وأشكال العناية بها.

(١/٢) السفينة في المعجم العربي: المدونة.

ومقصودنا بالمدونة هنا الأشكال المادية التي ظهر من خلالها العناية بجمع ألفاظ السفينة في العربية، وهي ما نرى أنها صالحة لأن تتوزع على مرحلتين، بمفهوم التصنيف، لا بمفهوم المرحلة التاريخية؛ هما:

(١/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدونة ما قبل الاستقلال.

(٢/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدونة الاستقلال (معجمات السفينة).

لقد كان مدهشًا تغطية مساحة كبيرة من ألفاظ معجم السفينة في مصادر لغوية وغير لغوية في تاريخ التأليف في الحضارة العربية بتأثير الإسلام.

(١/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدونة ما قبل الاستقلال.

في هذه النقطة نحاول أن نثبت أنّ المعجمية العربية -في تاريخ متقدم- تنبّهت إلى جدارة السفينة، بما هي موضوع، بالعناية، والرعاية وربما كان كافيًا في هذا السياق التدليل بعدد قليل من الأمثلة الكاشفة.

أولاً- ولعل الذهاب إلى معاجم الموضوعات يكون نقطة تمثيل صالحة لما نقرره من علامات هذه العناية التي منحتها المعجمية العربية قديماً لألفاظ هذا الحقل، وفي هذا الصدد يقابلنا أهم معجمات هذا النوع، وهو:

- "المخصص" لعلي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، إذ أفرد فصلاً (حقلًا) للسفينة (ق ٣) ١٠/٢٣-٢٩؛ وفصلاً (حقلًا) آخر بعده بعنوان: ما يشبه السفينة (ق ٣) ١/٢٩؛ ومن الجديد بالذكر أنهما جاءا تالين لباب البحر ونوعته وجزره وأسماء ساحله وما فيه من الحيتان والملاحظة البيئية التي تلوح من تحليل هذا الترتيب هي وضوح العلاقة الدلالية، والمعرفية بين البحر/ والسفينة؛ في تطبيقات المعجمية العربية، كما نرى في هذا النموذج.

وتحليل مادة هذين الحقلين يلحظ أنّ المعجمي العربي كان واعياً بمجموعة الحقول الفرعية المنضوية تحت حقل السفينة، وقد ضم ما يلي:

أ- ألفاظ السفينة (حقل علوي).

ب- ألفاظ أسماء أجزاء السفينة، ومكوناتها.

ج- ألفاظ أسماء الملاحين العاملين على السفينة.

د- ألفاظ أسماء ما يلحق بالسفن مما يجري في البحر مما هو دون السفينة.

هـ- ألفاظ أسماء بعض الأدوات المستعملة في صناعة السفينة.

كما يكشف تحليل شروح المداخل أموراً مهمة جداً تختص بعدد من المجالات الحضارية من مثل:

- أ- صناعة السفن (الإجراءات العملية).
- ب- قواعد تصنيع السفن.
- ج- مهارات الصنّاع ، وما تحصل لهم من تجارب السنين في البحر.
- د- مراكز تصنيع السفن في الجزيرة العربية ، من خلال تسمية كثير من السفن بنسبتها إلى أماكن صناعتها ، كالعُدولية ؛ المنسوبة إلى :
عدولى بالبحرين.
- هـ- تنوّع السفن تبعاً لتنوّع الوظائف (كالصيد والقتال... إلخ).
- و- تنوّع السفن تبعاً للأوضاع الاقتصادية في الأقاليم البحرية (سفن /
وأشباه سفن).
- ز- بعض العادات الاجتماعية والتاريخية الماثورة في بعض التعليقات
على معنى بعض المداخل.
- إنّ تحليل ما أورده ابن سيده في "المخصص" كاشف عن بعض عناية
قديمة بمعجمية السفينة ، ظهرت في إطار تطبيقات المعجم العامّ ، وهو الأمر
الذي ينبئ عن أهمية معالجته في هذا المجال.
- ثانياً- ولعل التفكير المنطقي يفرض علينا فحص مجالين معرفيين يغلب
الظن على عنايتهما بمعجمية السفينة بوجه خاص ، وهما :
- أ- مجال الكتابة في الرحلات (أدب الرحلات).
- ب- مجال الكتابة في التاريخ (تاريخ الشعوب والأحداث المرتبطة
بالبحر).

ذلك أنّ هذين المجالين يظهران عناية خاصة بسبب طبيعة البناء المعرفي لهما وهو باب واسع يحتاج نوع تتبّع ، وجمع وفحص وتحليل .
وتعدّ المقدمة التي صنعها : هانس كندرمان عن مصادر دراسة معجمية السفينة في كتابه "مصطلح السفينة عند العرب" خطوة جيّدة في هذا الباب^(٦) .

ومن المصادر المهمة التي أشار إليها كندرمان : كتاب "قوانين الدواوين" لابن مماتي المتوفى ٦٠٦هـ .

وقد جاءت عناية ابن مماتي بقائمة أسماء السفن التي ذكرها ، بسبب ما أراده الرجل لكتابه أن يكون في التاريخ الإداري والزراعي للدولة المصرية في عصره (الدولة الأيوبية) ، فصنع فصلاً للأسطول المنصور (ص ٣٣٩) ، يقول في مفتحه "وهو الآن يجري في جيش المصريين ، وسنذكر... أسماء مراكبه"^(٧) .

صحيح أنّ القائمة التي ذكرها الوزير الأسعد بن مماتي تعدّ من القوائم المعجمية القصيرة ، لكنها مهمة من أكثر من جانب :

أ- هي في سياق الغرض الذي سبقت من أجله في تحليل تكوين الجيش المصري في مرحلة تاريخية قديمة .

ب- هي مهمة لأنها تختص بنوع بعينه من السفن ، هي السفن الحربية .

ج- هي مهمة لأنها تكشف عن وظائف مختلفة للسفن في المجال الحربي ،

فمنها سفن للمقذوفات ، ومنها سفن لحمل الدواب والخيل ،

ومنها سفن لحمل المؤن ، والأزداد... إلخ .

وقد ضمت قائمة ابن ممتى ثمانية مداخل (=أسماء سفن)، وكانت طريقة شرحها معتمدة على بيان وظائفها؛ أي أنّ السمات الدلالية الفارقة التي تميّز كل سفينة عن غيرها ظهر من بيان أمرين هما:

أ- وظيفة نوع كل سفينة.

ب- تكوين السفينة، وحجمها.

من هذين النموذجين يتضح لنا أنّ التراث العربي المعجمي العامّ وغيره من مجالات أخرى يضم ألفاظاً كثيرة جداً للسفينة، تحتاج إلى التتبع، والجمع، والتنظيم، والتحليل، وهي صالحة لأنّ تخدم قطاعات علمية كثيرة تتعلق بتاريخ الحضارة العربية.

ولن تكون الثمرة المرجوة مقيدة إلا بعد توافر البحث على دراسة مصادر أسماء السفينة في اللسان العربي، وجمعها، وتدوين الملاحظات اللغوية (التأصيلية) والتاريخية، والحضارية عليها.

وبحث المصادر هذه مهم جداً، ما يزال يشهد قصوراً ظاهراً في الأدبيات التي عاجلت الموضوع إلى الآن!

(٢/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدوّنة الاستقلال (المعجمات المستقلة).

أظهرت دراسة مصادر أسماء السفن في العربية تنوع مجالاتها المعرفية، وقد مر في مطلب سابق بيان ملامح العناية بمعجمية السفينة في العربية في منطقتين معرفيتين. وأشرنا إلى عدد آخر من المظان التي يمكن أن تمثل منطقة خصيبة لمن يروم دراسة ألفاظ السفينة في العربية وأسمائها.

وقد تأخر استقلال التصنيف في أسماء السفن في العربية حتى العصر الحديث وقد سبق التقليد الاستشراقي التقليد العربي في العناية بالتصنيف المستقل في معجمية السفينة في الحضارة العربية الإسلامية. وقد وصلت إلينا المصنّفات المعجمية التالية في هذا الباب :
أولاً- في التقاليد الاستشراقية :

- ١٦٣٤م / هانس كندرمان = مصطلح السفينة عند العرب.

وعنوانه بالألمانية :

Schiff im Arabischen untersuchung uber vorkommen und Bedeutung der Termini, Zwickau, ١٩٣٤.

وترجمته كما نقلها الصديق الدكتور / رضا الدقيقي : السفينة في البحث

العربي : دراسة عن دلالة المصطلح ومعناه، دار النشر: تسفيكا، بدن ١٩٣٤م.

ثانياً- في التقاليد العربية :

أ- ١٩٦٧م / الدكتور جمال الدين الشيال =

«معجم السفن العربية، وهو مجموعة بطاقات وجزازات مخطوطة، كانت محفوظة بمكتب سكرتارية السيد وكيل (نائب رئيس) جامعة الإسكندرية للبحوث والدراسات العليا»^(٨) وقد ضمّنها درويش النخيلي كتابه عن السفن الإسلامية على حروف المعجم.

ب- ١٩٧٤م / الأستاذ درويش النخيلي =

السفن الإسلامية على حروف المعجم، طبعة جامعة الإسكندرية، سنة

١٩٧٤م.

وفي ما يلي دراسة للبنيتين الكبرى والصغرى لهذين المعجمين ؛ معجم
كندرمان ومعجم النخيلي :

(١/٢/٢) ١٩٣٤م/هانس كندرمان= مصطلح السفينة عند العرب.

صدر هذا المعجم أولاً بالألمانية ١٩٣٤م، ثم ترجمه: نجم عبد الله
مصطفى، ونشره المجمع الثقافي، بأبوظبي، بدولة الإمارات العربية
المتحدة، سنة ٢٠٠٢م، يقول في تقييمه درويش النخيلي في مقدمة معجمه
عن السفن الإسلامية: "وتجدر الإشارة هنا إلى واحد من الأعمال الممتازة
التي أخرجها المستشرق الألماني كندرمان Kindermann وهو كتابه:
Schiffim Arabischen فهو يعدّ من أهم -إن لم يكن أعظم- المراجع
الحديثة التي يعول عليها كل من يكتب في هذا الموضوع".

وفحص هذا العمل يكشف عن بنائه المكوّن من ثلاثة أقسام هي:

أولاً- البنية الكبرى:

أ- المقدمة.

ب- المعجم (مرتب ألفبائياً).

ج- الملاحق والكشافات = (الفهارس).

وفي ما يلي تحليل لما ورد في هذه الأقسام الثلاثة:

(أ)

المقدمة

ضمّت مقدمة هذا العمل كلمة عن أهمية هذا النوع من الأعمال المعجمية

وكلمة عن المحاولات الغربية المتماسة مع موضوع المعجم، من مثل أعمال:

- برنو ---- البحر.

- بارتولد ----- القرآن والبحر.

وغير ذلك من مقالات مختصة بتاريخ الملاحه عند العرب، لفستفيلد وجويدي وغيرهما. ويشير إلى أهمية دراسات التعريب التي اعتنت بالألفاظ الأعجمية في العربية.

ثم بين أنه رتب مداخل معجمه وفق الترتيب الألفبائي، وإن لم يهمل استثمار العلاقات الاشتقاقية التي بين الكلمات في بعض الأحيان (ص ٩)، وقد حرص على مساعدة المستعمل الأجنبي، فنقل له النطق بالتمثيل الصوتي أو الكتابة الصوتية.

وفي إطار المقدمة خصص كندرمان مقالة أو مطلباً لمراجع الدراسة، وقف فيها وقفة طويلة متأنية فاحصة، جمع فيها المحاولات التي سبقته، واعتنت بأسماء السفينة في اللسان العربي، وكان مما أشار إليه من الأعمال الغربية:

- مقالة فستفيلد ١٨٨٠م: أسماء السفن في العربية، وكشف عن مصادره في بناء هذه المقالة (ص ١١).

- مقالة جلدمايستر ١٨٨٢م: حول السفن العربية، وهي تكملة لما سبقها.

- دي خويه، وقد اعتمد على المقدسي في صناعة قائمته.

أمّا المصادر العربية فأشار إلى ما يلي :

ابن سيده سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م في كتابه "المخصص" ، وقد مرّ هنا التوقف أمام هذا المصدر.

ابن ممتي سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م في كتابه "قوانين الدواوين" وقد مرّ هنا التوقف أمام هذا المصدر.

ثم ختم المقدمة بمقالة بعنوان : طريقة البحث وخطته ، وقرر أنّ «الفكرة الرئيسة عند ترتيب مجموعة الكلمات التي تدل على السفينة ليس فقط جمعها من مراجعها ، بل إعطاء فكرة عن تطور معناها التاريخي».

ويقول في سبيل بيان هذا (ص١٩) : «عملت على الاستفادة الكاملة للكلمة لمعرفة تحديداتها من حيث المعنى... إذ إنه من المهم معرفة زمن ومكان ظهور كل نوع من السفن ، وكيفية صنعها ، ومظهرها ، ومن قام بصنعها ، لأيّ غرض».

وهذا الأمر يتجاوز بكتابه حدود المعجم بمفهومه التقليدي إلى نمط من الأعمال المعجمية الموسوعية التاريخية معاً.

ويعلل ذلك بقوله : «إنّ عدم العناية بهذه المسائل البديهية يؤديّ طبيعياً إلى عدم الالتفات إلى تطور مفهوم الكلمة ، وبالتالي معناها ، وكذلك علاقة المعاني المختلفة مع بعضها الآخر التي جمعها مجرد معجم ما عن طريق الصدفة».

ومن هنا يظهر أنّ خطة بحث كندرمان كما تظهر من مقدمته تدور حول

العناية بما يلي :

- ١- شرح معاني ألفاظ السفن.
- ٢- بيان المعلومات التاريخية حول السفن.
- ٣- بيان المعلومات الموسوعية حول السفن.
- ٤- بيان العلاقات الاشتقاقية التي تتعلق بأسماء السفن في العربية.

(ب)

نص المعجم

جاء نص المعجم، أو جسمه بعد المقدمة، ورتبت أسماء السفن فيه ترتيباً ألفبائياً مشرقياً، وفق شكل الكلمة النهائي المستعمل من غير ردّ إلى الجذور.

ولكن المعجم يستطرد عندما تترابط مجموعة نوعية من السفن دلاليّاً بالاسم الذي يعلّق عليه؛ ففي تعريفه للمدخل (أسطول) استطرد فذكر أفروطة / ورمادة / وعمارة / ودوننما / وشون / ومراكب.

والعجيب أن لا يذكرها في مظانها من الترتيب الألفبائي! وهذا أمر غير تيسيري، ويفوّت النفع على من لا يدرك العلاقات الدلالية فيما بينها، وكان من المهم ذكرها في مظانها مع الإحالة على المواضع التي ورد فيها التعليق عليها!

وقد تكرر من كندرمان ذلك في المداخل التالية:

- بركة (براكية / وبرشة / وباكوا).

- بطيل (مطيال / بنيل).

- جنك (زنك).

- جلايية (عسيية / جسارية / الكشترى).

- حرمية (مركب حمال).

- خولة (رباب).

- دقل (سكان).

- دونى (دنجى / دانوق).

- ذهبيية (دهبيية).

- زواريق (زراريق).

وثمة مواضع أخرى ترد تصديقاً لهذا الملحظ.

ومن جانب آخر شكلي ولكنه مهم، فقد وقع سهو في تحرير المداخل التي التزم فيها محرر المعجم ومحرر الترجمة كتابة المداخل بحجم طباعي غليظ، فقد جاءت مجموعة من المداخل مكتوبة بخط عادي من دون تغليظ، وهو ما قد يفوت أيضاً بعض المنافع، نرى ذلك في المداخل التالية (ساعية ص ١٢٣).

(ج)

الملاحق

بعد الانتهاء من المعجم ألحق كندرمان مجموعة من الملاحق الإضافية،

وهو تقليد استشراقي عريق، تمدد في ثلاثة اتجاهات هي:

أ- اتجاه الكتب المحققة (النشرات النقدية للنصوص التراثية).

ب- اتجاه ترجمة النصوص التراثية.

ج- اتجاه التصنيف المعجمي المختص.

وقد ضمت هذه الملاحق مجموعة من التعليقات والمباحث القصيرة حول ما يلي :
أولاً- عدد من المداخل من مثل : الأسطول / والسفينة / وسنبوك / وعربة /
وغراب / وما شوه ، وهي تعليقات تتعلق في الغالب بمعلومات تأصيلية وتاريخية.
ثانياً- محاولة تسعى للتفريق بين الكلمات الأعجمية والكلمات العربية من
خلال الفحص التاريخي ، والحضاري والتأصيل اللغوي المعتمد على معطيات
الصوتيات والأبنية.

(د)

الكشافات = (الفهارس)

ختم كندرمان كتابه (على ما يظهر من الترجمة) بكشافين (أو فهرسين)
اثنين فقط هما :

أ- كشاف = (فهرس الكلمات).

ب- كشاف = (فهرس المراجع).

والكشاف الأول الخاص بالكلمات مهم جداً للمستعمل المعاصر من
أكثر من جانب ، إذ يعين في يسر على الوصول إلى الكلمة التي يمكن أن
تمثل شغلاً للباحثين ، فضلاً عن أنها تعالج النقص الحاصل منه جهة الاستطرد
بإيراد ألفاظ في غير مظانها من الترتيب ، نظراً لورودها مع غيرها لعلاقات
دلالية تجمعها معها.

(للبحث صلة)

الهوامش:

* كلية الآداب - جامعة المنوفية - المنوفية - ج.م.ع.

(١) لغة مقدسة وناس عاديون: معضلات الثقافة والسياسية في مصر، لنيلوفر جاثري،

ترجمة: عيدرأوس ومراجعة مديحة دوس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سنة

٢٠١١م. (١٦٩٢)، ص ٢٥٨.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث،

القاهرة، سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ١٤٠.

(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، لفرنسك، مكتبة برييل، مدينة ليدن،

سنة ١٩٣٦م، (١/١٤٤ وما بعدها).

(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (٢/٤٧٥) و(٣/١٩٨).

(٥) انظر: تراويل متوسطة، لبريدراج ماتفيجيفتش، ترجمة عبد الجليل ناظم، وسعيد

الحفصالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م (ص ١٣٩)؛ حيث يقول: "يكتننا

الكشف عن مجموعة من الأشياء والكلمات ووجهات النظر والمواقف وإن أديبات الملاحه

تعرف كثيراً من أنواع المصطلحات المرتبطة بمختلف الميادين، وكل من يحاول الكتابة

عن البحر المتوسط يلتجئ إليها!" ويقرر أن معجم البحر والملاحه أصابه ما يصيب

غيره من التطور الدلالي؛ فيقول (١٩٤ في فصل المعجم من الكتاب): "لقد غيّر الزمن

معنى كثير من الكلمات المتعلقة بالملاحه والبحر، كما غيّر كثيراً من الكلمات الأخرى!"

(٦) انظر: مصطلح السفينة عند العرب، لهانس كندرمان، ترجمة نجم عبد الله مصطفى،

المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م، ص ١١-١٨.

(٧) كتاب قوانين الدواوين، لابن ماتي، تحقيق: الدكتور عزيز سوربال عطية، وإشراف

الأمير عمر طوسون، مصورة مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م

ص ٣٣٩-٣٤٠.

(٨) السفن الإسلامية على حروف المعجم، لدرويش النخيلي، طبعة جامعة الإسكندرية

سنة ١٩٧٤م، ص ١٧١.

شعر عنتر بن شداد
في الموروث النقدي عند العرب
"دراسة في نقد النقد"
(٢)

بقلم: د. محمد رمضان الجوهري ❖

المبحث الثاني: النقد الأخلاقي

أولاً- شعر عنتر من منظور أخلاقي:

عرف عنتر في التراث العربي بالفروسية بكل ما تحمل الكلمة من معان، فهو شجاع ساعة اللقاء، صبور في الشدائد، عفٌّ عند الغنائم، جواد وقت الفاقة، حلِيم حين الغضب، عفيف عن المسألة، ليس بفحاش في القول، يأبى الدنية، ويترفع عما يدنس العرض، وقد عرف ذلك في نفسه فزها بفضائله، وافتخر بشيمه؛ يقول ابن قتيبة^(١): وكان عنتر من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده. وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة، حتى سابه رجلٌ من بني عبس، فذكر سواده

وسواد أمّه وإخوته، وعيّر به بذلك، وبأنه لا يقول الشعر، فقال له عنتره: والله إنّ الناس ليرافدون بالطّعمة، فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدّك قطّ، وإنّ الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بتسويمهم، فما رأيّناك في خيل مغيرة في أوائل الناس قطّ، وإنّ اللبس ليكون بيننا، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدّك خطّة فيصل، وإني لأحتضر البأس، وأوفى المغنم، وأعفّ عن المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفضل الخطّة الصّماء، وأمّا الشعر فستعلم. فكان أوّل ما قال قصيدة: "هل غادر الشعراء من متردّم"، وهي أجود شعره، وكانوا يسمّونها المذهبة.

وكلام ابن قتيبة يتسق في مبدئه مع واقع حال عنتره، فمثله يعيّر في أول حاله بسواده وسواد أمّه، فليس له من السطوة والشهرة والهيبة حينئذ ما يكفّ ألسنة العامة عنه، لكن في النفس أشياء من ختامه، فقد صرح أنّ عنتره بعد أن كان يقول البيت والبيتين غاظه ما قاله شأنه فقال أمّا الشعر فستعلم، فنظم عقب ذلك مطوّلته الذائعة، ومعلّته الشهيرة، وهذا مما لا يقبله العقل، ويرتضيه المنطق السوي، ففيه مبالغة تتناغم والحديث عن عنتره في كل حالاته، إذ كيف يتسنّى لشاعر لا يقرض من الشعر إلا البيت والبيتين، أن ينظم قصيدة طويلة ما بين عشية وضحاها تنتشر في الآفاق، وتعدّ من عيون الشعر ودرره، إنّ ما ورد في المعلّقة من مقومات الفن، ودلائل الإبداع يقرران أنّ عنتره كان يقول القصائد قبل ذلك، ربما لاتصل في طولها كمطوّلته تلك، لكنها قصائد على كل حال، وليست

بيتاً أو بيتين أو ثلاثة على ما زعم ابن قتيبة، وإن كان ذلك مقبولاً في أول نظمه للشعر، وبداية قرضه له.

وقد اعتنت المصادر العربية بإيراد الأخبار المتعلقة بالأخلاق المنبئة في تضاعيف شعر عنتره، ومقارنته بغيره؛ لتبين دلائل أخلاقه، وأمارات فضائله، ومن ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في "عقده" (٢) من قوله: قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قال: كُنَّا نتناشد الشعر، ونتحدث بأخبار جاهليتنا. وقال بعضهم: وددتُ أن لنا مع إسلامنا كرمَ أخلاق آبائنا في الجاهلية، ألا ترى أن عنتره الفوارس جاهلي لا دين له، والحسن بن هانئ إسلامي له دين، فمنع عنتره كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه؟ فقال عنتره في ذلك: وأغضَّ طرْفِي إن بدت لي جارتي حتى يُوارِي جارتي مأواها وقال الحسن بن هانئ مع إسلامه:

كان الشبابُ مطيَّةَ الجهلِ ومُحسِّنَ الضَّحكاتِ والهَزَلِ
والباعِثي والناسُ قد رَقَدُوا حتى أتيتُ حليلةَ البَعْلِ
وتلك رؤية تنطلق من منظور أخلاقي، وتعتمد الفضيلة أساساً للحكم، ومقياساً للتفاضل، فقد منعت أخلاق عنتره رغم جاهليته ما لم يمنعه إسلام أبي نواس، فعفَّ عنتره نظره، وغضَّ بصره، وصان حق جاره، في حين عاقر أبو نواس المملدات، واقترف الموبقات، غير عابئ بدين يدفع، أو خلق يمنع.

كما أوردت المصادر^(٣) كذلك خبر إعجاب النبي ﷺ بشعر عنتره وخُلُقِه، فذكرت أنّ ابن عائشة روى عن أبيه قال: أنشد النبي ﷺ شعراً عنتره العبسي:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكَلِ
فقال النبي ﷺ: «ما وصف لي عربي قط فأحبيت أن أبصره إلا عنتره»،
وفي رواية «ما وصف لي إعرابي قط فأحبيت أن أراه إلا عنتره»^(٤).

وسوق كتب المصادر الأدبية تلك الشواهد يؤكد إكبارها للأخلاق، وانطلاقها من غاياته، متى استدعاها المقام، أو عرّج عليها المؤلف، فالفضائل ينجح إليها ذوو الهمم العالية، والفطر السوية، وترسيخها في النفوس يأخذها لعالم مثالي تطلّ من نوافذه على رحابة القيم التي تضمن للمجتمعات -متى سادت- الرشاد والرقى.

ثانياً- شعر عنتره بين التأثر والتأثير:

لقد هممت غير ذات مرة أن ألحق هذا المبحث بالنقد الفني، فبينهما شائبة اتصال تؤلف، إذ يشفّ في معظمه عن نظرات موضوعية تعتمد السرقة والأخذ مقياساً في الحكم، وذلك باب لا يتأتى إلا بإنعام النظر، وسعة الاطلاع على أشعار العرب، والوقوف على معانيهم، وإدراك العلائق خفيها وظاهرها بين المعنى ومشاكله، وتلك ومثيلاتها لا تتأتى إلا لناقد بصير، وعالم طلعة، يتلمّس الأواصر، ويدرك المشابهة، وتلك رؤى فنية تحتاج إلى جانب الذوق الدربة، والعلم، والحفظ، وهي من

مقومات النقد الفني وأسسها، إلا أنّ قضية السرقة وإن تغيّرت مسمياتها، وتعدّدت مفرداتها تشدّها إلى الأخلاق روابط تجذب، وعلائق تقرب، فالإغارة على معاني السابقين وانتهاج رائقها منزع فاسد لا يقلّ في فداحته عن السلب والسرقة، إلا إذا زاد المتأخر في المعنى ما استحق به الإشادة والأخذ؛ لذا رأيت في إلحاقه بهذا المبحث دون سابقه ما يبرر ويقنع.

لقد اهتم النقاد العرب بما أتوا من مواهب، ومنحوا من ذكاء، وحصلوا من علم أن يتتبعوا شعر عنتره تتبّعهم لشعر غيره من أنداده، ويولوا قضية تأثيره بسابقه في بعض معانيه، وتأثر لاحق به، وأخذهم منه، وإغارتهم عليه، وسرقتهم منه أهمية تتناغم ودقة هذا الباب الشائك، وقد وازنوا في ثنايا ذلك -أحياناً- بين المعاني الأصيلة والمنتهبة، ولهم في باب السرقات وملحقاتها ومسمياتها جهود تنبئ عن فهم أصيل، وذوق مرهف، ودربة قادرة على جلاء الأخذ والسلب، وقدرة مكينة تعين على إصابة المحز في استحقاق المعنى، وتقصير اللاحق أو إجادته.

ويتسنى لمن يضرب بعصا التسيار بين آفاق الشعر العربي وأطيافه أن يقف على حقيقة مفادها أنّ سرقات المعاني وادعاءها أمر محقق، وواقع ثابت لا يتطرق إليه إثارة ريب أو ردّ، يقرر ذلك الأمدي في قوله: «وهذا باب ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر»^(٥)، ويرى ابن رشيق أنه باب متسع جداً لا يستطيع أحد أن يدّعي السلامة منه^(٦)، ويؤكد تلك الحقائق القاضي الجرجاني بقوله: «السرقة داء قديم، وعيب عتيق، وما زال

الشاعر يستعين بخاطر الآخر، ويستمد من قريحته، ويعتمد على معناه ولفظه»^(٧).

ولم يسلم من ذلك كبار الشعراء ومتقدميهم، فامرؤ القيس وصفه المرزباني بقوله: «إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا قبله»^(٨)، ونص ابن قتيبة على أنّ طرفه -رغم أنه أول من ذم السرقات الشعرية من الشعراء^(٩)- والنابعة كانا يأخذان من شعر امرئ القيس^(١٠).

وليس الوكد البسط المترهل لهذه القضية في جنباتها فقد كفتنا مؤنة ذلك تناولها بالتفصيل في كتب المتقدمين والمتأخرين، وإنما القصد التوطئة بالقدر الذي يرفد الدراسة بالرؤية الهادية في باب دقيق يعرف كنهه ذوو البصر بالشعر ومسالكه، وقد صرح الأقدمون باعتماد عنتره معاني بعض سابقه في شعره، وأخذه منهم، وقد صرح هو بإمكانية ذلك حين ذكر أنّ المتقدمين أتوا على المعاني ولم يتركوا شيئاً لمن بعدهم، وذلك في قوله:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ؟ أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ؟

والتردم كما يقول الزوزني: الموضع الذي يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهي، والتردم أيضاً مثل الترم، وهو ترجيع الصوت مع تخزين... ومراد الشاعر أنه لم يترك الأول للآخر شيئاً، أي سبقني من الشعراء قوم لم يتركوا لي مسترقعاً أرقعه ومستصلحاً أصلحه، وإن حملته على الوجه الثاني كان المعنى: إنهم لم يتركوا شيئاً إلا رجعوا نغماتهم بإنشاء الشعر وإنشاده في وصفه ووصفه^(١١).

وقول عنتره هل غادر الشعراء من متردم يدل على أنه يعدّ نفسه محدثاً،
قد أدرك الشّعْر بعد أن فرغ الناس منه ولم يغادروا له شيئاً، وقد أتى في
هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم^(١٢).

وتناولات النقاد الأقدمين لقضية السرقات في شعر عنتره تفرض تقسيم
القضية إلى ثلاثة أقسام استيفاء لجوانبها، وتتميمًا لما أوردوه فيها، وهي
على النحو التالي:

أولاً- تأثره بسابقيه:

لم يورد النقاد في هذا الباب إلا أمثلة قليلة تقرر أخذ عنتره من سابقيه،
واعتماده في شعره على بعض معانيهم مما يؤكد تفرّده في جُلِّ شعره بما
يشهد له بالبراعة والابتكار، ومن ذلك قوله في بيته المشهور:

نُبِّئْتُ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرٍ نِعْمَتِي وَالْكَفْرُ مَحْبَثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ^(١٣)

وقد عدّ الثعالبي البيت من أمثال عنتره السائرة^(١٤)، واستحسنه ابن
رشيق و أَرَدَفَهُ بقوله: فجاء بالمثل غير محتاج إلى ما قبله^(١٥).

وقد عقد الحاتمي باباً في كتابه "حلية المحاضرة" للانتحال والاستلحاق،
وذكر فيه أنّ معظم الشّعْر الذي يرويهِ الناس لعنتره هو لهراش بن شدّاد...
وهو أخوه من أمّه زبيبة^(١٦)، وقبل تصرّحه بذلك أورد البيت "نُبِّئْتُ
عَمْرًا"، وذكر أنّ البيت لبشر بن شلوة التغلبي، وقد انتحله عنتره^(١٧).

وقد أورد البيت محمد سعيد مولوي في "ديوان عنتره" ضمن معلقته
الذائعة، والديوان محقق على ست نسخ مخطوطة، ولم يُشر أحد غير الحاتمي

إلى أن البيت لبشر، وأنّ عنتره أخذه منه وانتحله، مما يضعف قول الحاتمي، ولو كان الأمر على ما ذكر الحاتمي لأشار إليه نقاد العربية في حديثهم عن الإغارة والنحل، ويعضد ردّ قول الحاتمي تصريحه بأنّ معظم شعر عنتره الذي بأيدي الناس إنما هو لأخيه هراش بن شدّاد، فهذا حكم يفتقر إلى دليل، ومن ثم يحتاج إلى معاودة نظر، ولا يمكن قبوله على شاكلته المنصوص عليها؛ لأنه خبر مفرد لم يقل به غيره.

ومن ذلك قوله^(١٨):

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغَشَى الْوَعَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

وقد ذكر البيت في حماسة الخالدين، وقبله ذكر المؤلف قول سعد بن

مالك بن ضبيعة:

فَالِهْمُ بِيَضَاتُ الْخُدُو رِ هِنَاكَ لَا التَّعَمَ الْمِرَاحُ

وعلق على البيت بقوله: أمّا قوله: «التَّعَمَ المِرَاحُ» فهو الأصل لكل من

تبعه، ومنه أخذ أبو تمام قوله:

إِنَّ الْأَسْوَدَ أُسْوَدَ الْغَيْلِ هَمَّتْهَا يَوْمَ الْكَرْبِهِةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ

وأول من نطق بهذا المعنى عنتره في قوله: «أغشى الوعى وأعف عند

المغنم»^(١٩).

وفي القول تناقض يدفع إلى الحيرة، ويدعو إلى البحث إصابة للحق، فقوله «هو الأصل لكل من تبعه» يفيد أوليته واختراعه، وأنه أول من فض مغاليقه، وأتى به معبراً عن قيمة عربية تكشف النقاب عن مزية وفضيلة، إلا

أن غلبة قول عنتره على عقله، وإعجابه به مع سهولة لفظه، ورقة رصفه، وسيروورته واشتهاره دفعه - في غفلة - إلى نقض حكمه الأول بقوله: «وأول من نطق بهذا المعنى عنتره» فهدم ما ابتدأه من حكم، ونسخ ما صرح به من قول، وأوقع المتلقي في حيرة بين حكمين لا يستقيمان في معرض، أو يتسقان في موطن، وظلت في النفس غصة تشرق، ورفض دافع إلى التحقيق والبحث إلى أن أورد الخالديان قول قيس بن زهير العبسي:

تَرَكْتُ النَّهَابَ لِأَرْبَابِهِ وَأَكْرَهْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ الصَّعْقِ

ثم أرففه المؤلف بقوله: قد ذكرنا كما تقدم أن أصل هذا المعنى بيت عنتره: يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغَشَى الْوَعَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ وذكرنا معه شيئاً من نظائره، فلما وقفنا على هذا البيت علمنا أنه الأصل فإن قال قائل: قيس بن زهير وعنتره بن شداد العبسيين في عصر واحد، قلنا: صدقت، إلا أن قيس بن زهير كان أكبر من عنتره بدهر طويل. وأخرى أن هذا الشعر قاله قيس في آخر حرب داحس، وهو الوقت الذي قتل فيه خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة العبسي، في أسره عمرو بن صعق العامري، وما نحسب أن عنتره كان وُلد في ذلك الوقت، وإنما لحق عنتره آخر أيام عبس وذبيان بعد يوم جَبَلَة، وإنما ثبتت شجاعته في يوم عُراعر ويوم الفُروق وهذان اليومان بعد يوم جَبَلَة، ويوم جَبَلَة كان وقد مضى من حرب داحس شبيهه بخمسين سنة^(٢٠).

ويبدو أنّ توارد المعاني عند الشعراء وكثرتها وتكرارها فيما بينهم كثيراً ما كانت توقع الخالدين في حيرة، وتدفعهما إلى التناقض، فكلما أصدر أحدهما حكماً في استحقاق شاعر معنى من المعاني، واستراح إلى ذلك أتاه المعنى ذاته عند آخر فلم يستطع كتمانها أمانة وإعجاباً، فيورده متناسياً حكمه الأول الذي أصدره قبل أن يصله، فيعقب عليه بما يخالف حكمه دون آبه بالتناقض، وقد وضح ذلك في حكمه الأول على عنتره، وتكرر ذلك ثانياً هنا، فما أن حكم أنّ المعنى ليس لعنتره وإنما لقيس بن زهير الذي يكبره عاد فذكر عقب ذلك قوله: ومن جيّد ما قيل في هذا المعنى الذي قدّمنا ذكره وأقدمه قول عمرو بن كلثوم التغلبي:

فأبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا^(٢١)

فجعل قول عمرو بن كلثوم الجيّد في معناه، والأقدم في بابه، وأعادنا ثانية إلى نقض حكمه السابق من استحقاق قيس بن زهير المعنى، كما أنّ ثمة خلط يلحظه من يُروى في القول، فقول المؤلف: «قد ذكرنا كما تقدّم أنّ أصل هذا المعنى بيت عنتره... وذكرنا معه شيئاً من نظائره، فلمّا وقفنا على هذا البيت -يريد بيت قيس بن زهير- علمنا أنّه الأصل»، فهذا الكلام الذي نقض به حكمه في استحقاق عنتره المعنى ورد في الكتاب في الصفحة الأربعين، وحكمه القاضي لعنتره بقوله: «وأوّل من نطق بهذا المعنى عنتره» ورد في الصفحة التاسعة والأربعين، وقد انتهى من حكمه لقيس بالمعنى دون عنتره من ناحية، وقضى لعمرو بن كلثوم بالإجادة والقدم

من ثانية ، وكأنّ خلطاً أصابه فنسي ما قاله ، أو أنه ذكر قوله السابق أولاً ثم ثنى بذلك ، إلا أنه حين أعاد ترتيب الكتاب قدّم وأخر فجاء الخلط والاضطراب ، كما لا يبعد أنّ أحد الخالدين حقّق قولاً فحكم ، ثم حقّق الآخر القول الثاني ، فوق التناقض والخلط .

وعلى كلّ فالمعنى ليس لعنترة ابتداءً ، وإنما سبقه إليه غيره ، ولا عبرة بقول صاحب الأشباه والنظائر «وأولّ من نطق بهذا المعنى عنتره» فقد ورد ما ينقضه بالدليل والشاهد ، ويحسب لهما أمانة التصريح بما يخالف قولهم حين تقرر لديهم ذلك ، ويحسب عليهما عدم تحرير القضية في موضوع واحد ، وترتيبها للجزم بالسابق بدلاً من الخلط والاضطراب .

ومن هذا القبيل كذلك ما أورده ابن رشيق في عمدته^(٢٢) من أخذ عنتره من امرئ القيس في أعطاف حديثه عن المجدود من الشعر ، فقال : وأما المجدود من الشعر فنحو قول عنتره العبسي :

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصِرُّ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكْرَمِي
فَقَوْلُهُ «وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكْرَمِي» رِزْقٌ جَدًّا وَاشْتِهَارًا عَلَى قَوْلِ
امْرِئِ الْقَيْسِ :

وَشَمَائِلِي مَا قَدْ عَلِمْتَ وَمَا نَبَحَتْ كَلَابُكَ طَارِقًا مِثْلِي
ومنه أخذ عنتره ، والمخترع معروف له فضله ، متروك له من درجته ، غير أنّ المتبع إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إن كان طويلاً ، أو يبسطه إن كان كزاً ، أو يبيّنه إن كان غامضاً ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافاً ،

أو رشيق الوزن إن كان جافياً، فهو أولى به من مبتدعه، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر، فأما إن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها، فإن قصّر كان ذلك دليلاً على سوء طبعه، وسقوط همته، وضعف قدرته.

ثانياً- تأثير لاحقيه به :

كان لعنترة أثر لا ينكر على لاحقيه من الشعراء الذين راقهم شعره، وأعجبتهم وثبات خياله، ورائق صورته، ومعجب معانيه، وسلامة طبعه، فحجّوه مشدودين إلى نظمه، ويمّموه مأخذوين بلوثة الفن، وصدق العاطفة، وقوة الفروسية المتبدية في ثنايا أبياته، وأعطاف أدبه، فلا غرو أن تأثروا به، واستمدّوا من معانيه ما يعبرون به عن لواعج أنفسهم، وكوامن ذاتهم.

وقد لحظ النقاد العرب كثرة أخذ الشعراء اللاحقين لمعاني عنترته وصورته، ونصّوا على ذلك في مؤلفاتهم، وتمكّنوا -اعتماداً على معرفتهم بدروب الشعر ومسالكه، وحفظهم لقديمه، وروايتهم له- أن يبيّنوا كنه ذلك، وأن يردّوا معانيهم إلى أصولها، والأمثلة على ذلك كثيرة نسوق منها ما يلي :

قال أبو علي القالي^(٢٣) : وأنشدنا أبو بكر -رحمه الله- قال أنشدنا أبو حاتم للطرمّاح :

فتى لو يُصاغ الموت صيغَ كمثلهِ إذا الخيلُ جالتُ في تساجلها قدما

قال أبو علي : هذا مثل قول عنتره :

إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ تُمَثَّلُ مِثْلَتُ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضَنْكَ الْمَنْزِلِ
وبين البيتين من شوابك الصلوات ما يشهد بالأخذ ، ويؤكد التأثير ،
فالطرماع راقه معنى عنتره فأعاده على شاكلته دون تغيير إلا في لفظه ،
ومثل هذا الوصف بما يحتويه من قوة شكيمة ، وتصوير باس لائق بعنتره
الفرس لا بالطرماع الشاعر ، وإن كان يحسب للمتأخر حسن السبك ،
وإجادة الرصف ، وحسن التعبير ، ولا يعني هذا مجال خلو بيت عنتره من
ذلك وهو الشاعر المفلق ، والمجيد المطبوع ، فقد استطاع بقدرته على
التأليف والنظم أن يجذب غرب إعجاب المتلقي ، ويصل إلى سويدائه رغم
تكراره " مثل " بمشتقاتها ثلاثة مرات متتالية دون نبو أو استكراه .

وقد تأثر جلّ الشعراء بحديث الأقدمين عن الناقة والفرس ، واستمدوا
من معانيهم في هذا الباب ما يشهد لهم بالبراعة في الوصف ، والإجادة في
التصوير ، ومن ذلك قول عنتره في فرسه :

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم
وقد راق ذلك التناغم بين الفارس وفرسه جماعة من الشعراء ،
فيمّموه معجبين برائقه ، وأعادوه مقتفين أثر عنتره فيه ، يقول صاحب
"الأشباه والنظائر"^(٢٤) وقد ساق قول طفيل الكلابي :

طلّقت إن لم تسألني أيّ فارس حليلك إذ لاقى صداءً وخشعما^(٢٥)
أكرّ عليهم دعلجاً^(٢٦) ولبانه إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحمًا

وهذا مثل قول عنتره:

فازور^(٢٧) من وقع القنا بلبانه^(٢٨) وشكا إليّ بعبرة وتحمحم^(٢٩)
لو كان يدري ما المحاوره اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلّمي

ومثله قول عمر بن أبي ربيعة:

لشكى الكميّ الجري لما جهده وأفصح لو يستطيع أن يتكلّم

ومثله وأومى إلى فرس المدوح فقال:

كم كم تجرعه المنون فيصبر لو يستطيع شكا إليك الأدهم

فليس للطفيل الكلابي ولعمر بن أبي ربيعة إلا إعادة السبك بلفظ مغاير، وتكرار معنى عنتره دون زيادة يستحقان بها التنويه والذكر، وكان عليهما وقد أتاها المعنى ذلولاً طبعاً أن يخلعا عليه من فنهما ما يستحقانه به، أو أن يتفرّدا بوجه من الوجوه عن سابقهما، إلا أنهما لم يفعلا، فافترشا مهاداً وطأه، وسلكا طريقاً عبّده، وقد قيل: "إنّ المتبع إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إن كان طويلاً، أو يبسطه إن كان كزاً، أو يبينه إن كان غامضاً، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافاً، أو رشيق الوزن إن كان جافياً فهو أولى به من مبتدعه"^(٣٠).

ومن تأثر اللاحقين بعنتره مما يتصل بشكية فرسه السابق تقريره قول

المتنبّي:

نطقت بسؤددك الحمام تغنياً وبما يجشمها الجياد صهيلاً

فقد نصّ ابن وكيع^(٣١) - وقد عرض للبيت - أن صدره من قول

القائل :

ولقد سمعت حمامة أنشدتها فيك المديح فعددت تغريدا

وعجزه من قول عنتره :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمحم

ويتصل مما نحن بشأنه من تأثر اللاحقين بعنتره مما نص عليه النقاد

العرب ما أورده المبرد^(٣٢) في "كامله" من أن رجلاً من ولد الحكم بن أبي

العاصي، يقال له عبيد الله بن الحر، وكان شاعراً متقدماً، وكان لأمّ

ولد، وهو من ولد مروان بن الحكم قال :

فإن تك أمي من نساءٍ أفاءها جياذ القنا والمرهفات الصّفائح

فتباً لفضل الحر إن لم أنل به كرائم أولاد النساء الصّرائح

وإنما أخذ هذا من قول عنتره :

إنني امرؤٌ من خيرِ عبسٍ منصّباً شطري وأحمي سائري بالمنصل

ومن هذا القبيل قول أبي الوليد الأنصاري^(٣٣) :

وما السيّد الجبار حين يريدنا بكيدٍ على أرمحيننا بمحرّم

قال الخالديان في "حماستهما" تعليقاً على البيت : وأمّا قوله : «وما

السيّد الجبار؟» البيت ، فمثل قول عنتره ولا ندري أيّهما أخذ من صاحبه :

فشككتُ بالرمح الأصمّ ثيابهُ (ليس الكريم على القنا بمحرّم)

وهو شبيه بقول بعض بني تغلب :

نُعاطي الملوک الحقَّ ما قصدوا بنا فليسَ علينا قتلهم بمحرّم
ولنا بيت مثله من قصيدة في أهل البيت، عليهم السّلام، نُخاطب بها
مولانا الحسين عليه السلام:

بك صارَ عنترُ صادقاً في قوله ليسَ الكريمُ على القنا بمحرّم
وهذا من جيّد التّضمين ونادره.

وثمة وقفتان يستوجبهما النص، الأولى: قول المؤلف -وقد أورد بيت
أبي الوليد الأنصاري-: «وأما قوله: «وما السيّد الجبار؟» البيت، فمثل
قول عنتره «ولا ندري أيّهما أخذ من صاحبه»، ومعلوم أنّ أبا الوليد
شاعر عباسي مدح هارون الرشيد، والبرامكة، وما كنت إخال ذلك
يغيب عن المؤلف، مما جعلني أجيل الطرف في تصريحه مرات، وفي كل
مرة يرتد البصر حسيراً دونما تفسير يقطع، أو جواب يقنع، ولا يحتمل
التصريح إلا الجهل بأنّ أبا الوليد الأنصاري هو مسلم بن الوليد المعروف
بصريع الغواني، وعليه فالمعنى لعنتره دون حيرة تصرف، أو تردّد يوهم،
ولا عبرة بحكم صاحبا "الأشباه والنظائر" في هذا الموطن، أمّا الثانية: فهي
في تكرار معنى عنتره، وانتجاعه دون تلوين أو تغيير، وكأنه بلغ الغاية في
الحسن، والكمال في المعنى، فلا ينبغي أن يضاف إليه، أو يزداد عليه،
وهذا كله مردود ليس من المنطق في شيء، وكان على المقتفين سنن
سابقهم أن لا يعيدوا معناه دون زيادة أو نقصان.

ذكر ابن وكيع التنيسي في مصنفه^(٣٤) قال: قال المتنبي:

مَفْرَشِي صَهْوَةُ الْحِصَانِ وَلَكِنْ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ^(٣٥) مِنْ حَدِيدٍ
ما أعرف فائدة في هذا البيت ولا فرق بين قوله مفرشي صهوة الحصان
وقميصي مسرودة فيخبر عما يفترش ويلبس ويكون أحسن، وقد قال
الحماني:

طِيئُ الْغِبَارِ وَجَنَّتِي مَوْصُونَةٌ وَحَشِيَّتِي ظَهَرَ الْأَقْبُ الْأَشْقَرُ
وأول من سبق إلى هذا المعنى عنتره فقال:

وَحَشِيَّتِي سَرَجٌ عَلَى عَقْلِ الشَّوَى نَهْدٌ مَرَاكِلُهُ نَيْلُ الْمُحْزَمِ^(٣٦)
وهذا يدخل في قسم مساواة الآخذ المأخوذ منه في الكلام.

أورد الثعالبي في يتيمة^(٣٧) قول ابن نباتة من قصيدة في سيف الدولة:
يَجْرُ الْعَوَالِي وَالسَّهَامَ بِجَسْمِهِ كَمُحْتَطَبٍ لِلْحَمْلِ لَيْسَ يُطِيقُ
ثم عقب على البيت بقوله: سرقه من قول عنتره:

وَعَادِرُنَّ نَضْلَةٌ فِي مَعْرَكٍ يَجْرُ الْأَسِنَّةَ كَالْمُحْتَطَبِ
وليست الغاية الحصر والاستقصاء لأخذ اللاحقين من عنتره،

واستعانتهم بمعانيه، وإعادة سبكها في شعرهم تعبيراً عن مرادهم، وإنما
الوكد التعريج على القضية في كتب الأقدمين بالقدر الذي يجلي القضية،
ويبين أبعادها دون خفاء أو تعمية، وقد وضح من خلال إيراد الشواهد
إعجاب اللاحق من الشعراء بشعر عنتره، فقد طالع قصائده، وأجال
النظر في أعطافها، فاتكأ عليها، واستدعى رائقها، وأخذ منها، وعول
عليها، فكان في جلّ أخذه وتأثره الواصف الناقل، والمقلد العائد، يحدو

حذو نعاله، ويتفقد مواطئ أقدامه، فيضع قدمه حيث سار قصداً، مع زيادة لفظة يخالها تعفيه من الإغارة والنهب، وربما لفتة ظنها تقيه مغبة الجرح والنقد، هذا من ناحية، ومن أخرى فثمة شعراء أخذوا من معانيه -على قتلهم- فأعادوا سببها بعد أن كسوها من حلل إبداعهم، ورائق فنهم ما استحقوا من خلاله الإجادة والاستحسان.

ثالثاً- الموازنة الثنائية:

لم يقتصر شعر عنتره في الموروث النقدي عند العرب -في هذا الباب- عند حدود أخذه من سابقه، وتأثر لاحقيه به على النحو السالف، بل امتد ليشمل عقد الموازونات -أحياناً- بين شعره وشعر غيره ممن تأثر بهم، أو أثر هو فيهم، وقد ساقوا في أعطاف ذلك تعليقات استحسنا من خلالها قولاً على قول، ومعنى على آخر، وربما اكتفوا بالتصريح بإجادة أحدهما على صاحبه، أو تقصيره عنه، وكنت عزمت أن ألحق الموازونات بمبحث النقد الفني لاشتمالها على عناصره، وتعلقها بسببه، واتصالها به، لكنني رجحت إيرادها هنا تمييزاً لقضية التأثير والتأثير، وليقف المتلقي على جنبات القضية مكتملة من نواحيها، تامة في جوانبها، فالحديث ثمة كسابقه في الباب إلا أنه يزيد عليه الاستحسان أو التفضيل، والحكم بالإجادة أو التقصير، ولا يخرج ذلك بحال عن أنه أخذ وتأثر.

ومن ذلك قول المرزباني في موشحه^(٣٨): «عاب الناس قول طرفة:

أسدٌ غيلٍ^(٣٩) فإذا ما شربوا وهبوا كلُّ أمونٍ^(٤٠) وطيرٍ^(٤١)

فقيل: إنما يهبون عند الآفة التي تدخل على عقولهم؛ وفضلوا قول
عنترة بن شدّاد العبسي:

فإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَإِفْرَ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصِرُّ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكْرُمِي»

وحدثني عبد الله بن أحمد، عن أبي العباس المبرّد، قال: عيب على طرفة
بيته هذا، وقيل: إنما يهب هؤلاء إذا تغيّرت عقولهم؛ وإنما الجيد بيتا عنترة
هذان؛ فخبّر أنّ جوده باق؛ لأنه لا يبلغ من الشراب ما يثلم عرضه؛ ثم
قالوا: هو حسن جميل، إلا أنه أتى به في بيتين؛ هلاًّ قال كما قال امرؤ القيس:
سَمَاحَةٌ ذَا، وَبِرٌّ ذَا، وَوَفَاءٌ ذَا وَنَائِلٌ ذَا؛ إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرُ
وأخبرني الصّولي، قال: عيب على طرفة قوله: أسد غيل... البيت.

فجعل إعطاءهم عند الشرب؛ ويروى: "فإذا ما سكرنا"، فتبعه حسّان
ابن ثابت الأنصاري، فقال - وهو أعيب من الأول -:

وَنَشْرِبُهَا فَتَتْرَكُنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُهَا اللَّقَاءُ

فقول طرفة خير من هذا؛ لأنه قال: "أسد غيل فإذا ما شربوا" فجعل
لهم الشجاعة قبل الشرب، وحسّان قال: نشرب فنشجع ونهب كأننا
ملوك إذا شربنا؛ فلهذا كان قول طرفة أجود، وقول عنترة أحسن؛ لأنه
احترس من عيب الإعطاء على السكر وأنّ السكر زائد في سخائه، فقال:
وإذا شربت فإنني مستهلك. وذكر البيتين.

وقال زهير:

أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ولكنّه قد يهلك المال نائله
فهذا من أحسن الكلام، يريد أنه لا يشرب بماله الخمر، ولكنه يبذله
للحمد، وقال البحتري:

تكرّمت من قبل الكئوس عليهم فما اسطعن أن يحدثن فيك تكرّما
وقد أورد النقاد العرب تلك القضية في مؤلفاتهم، ودارت رؤاهم في
فلك ما قيل من تفضيل بيت عنتره على طرفه، وتقصير حسان عن عنتره
في بيتيه، فقد أخذهما حسان فنقص منهما ذكر الصحو، ثم فضلوا عليهم
قول امرئ القيس؛ لأنه عبّر عن الإعطاء في السكر وحال الصحو في شطر
بيت بينما أورد عنتره قوله في بيتين، ثم استحسنا قول زهير؛ لأنّ
صاحبه لا تهلك الخمر ماله، وإنما يبذله فيما يكسبه الحمد والسؤدد.

كما اهتم بعضهم بإيراد بيت طرفه وتفضيل بيتي عنتره عليه دون ذكر
بقية النصوص الواردة في ذلك، ومن هؤلاء ابن عبد ربه في "عقده" (٤٢)
فقد عرج على القضية بقوله: «ومما أدرك على طرفه قوله:

أسد غيلٍ فإذا ما شربوا وهبوا كلّ أمونٍ وطمر
فذكر أنهم يعطون إذا سكروا، ولم يشترط لهم ذلك إذا صحوا كما قال
عنتره... البيتين».

ونص صاحب "البدیع" (٤٣) على أنّ عنتره أخذ معناه من طرفه، إلا أنه
كبقية النقاد فضّل قول عنتره على طرفه بقوله: أخذه عنتره فاحترز مما
طعن به على طرفه، وهو أنهم لا يشربون فيعطون من غير عقل.

وقد وازن آخرون بين قول عنتره وغيره من لاحقيه دون التعريج على بيت طرفه، ثم وازنوا بين القولين، ومن هؤلاء النويري^(٤٤) فقد أورد بيتا عنتره في معنى السخاء عند الشرب، وحال الصحو، وأتبعهما بقوله أخذه البحتريُّ وزاد عليه... والزيادة أنّ عنتره ذكر أنه يستهلك ماله إذا سكر، والبحتري ذكر أنّ ممدوحه يتكرم قبل الكؤوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكؤوس أن تزيده تكرماً.

وثمة فريق من المؤلفين عرضوا للقضية قصداً، فأضافوا إليها أقوالاً آخر لشعراء آخرين، ووازنوا بين المعاني متناسين قول عنتره ومنهم البغدادي في "خزائنه"^(٤٥) إذ أورد قول الخرنق بنت هفان:

إن يشربوا يهبوا وإن يذروا يتواظفوا عن منطق الهجر
ثم علق عليه بقوله: قولها: إن يشربوا يهبوا ليس بمدح تام؛ لأنها جعلت العلة في كرمهم شرب الخمر، وأردف ذلك بيت طرفه، ثم حسّن، والبحتري، وامرئ القيس، وفي النهاية زهير، ولم يعرج على بيتي عنتره بالذكر مخالفاً نهج غيره ممن أوردوهما في معرض الموازنة والتفضيل.

وقد وقف ابن داود الأصبهاني في كتابه "الزهرة"^(٤٦) - وقد عرض لتلك المعاني - موقفاً مغايراً انفراداً به عن الجميع، فرأى أنّ أقوالهم ليست من المديح في شيء، فأبيّ مدح في جود يسخو به صاحبه في غيبة وعي، وذهاب عقل، فهؤلاء الشعراء وأنداهم صيروا سبب السماحة والشجاعة زوال التمييز والمعرفة. وصاحب هذه الحال والمجنون سواءً بمنزلة، يقول:

ومَّا في الخمر من المقابح التي يعتدُّ بها من لا يفهم من المدائح أنَّها تنفي الأحران، وتشجّع الجبان، وتسهّل على البخلاء الدّخول في جملة الأسخياء. ولو لم يكن في الخمر عيب غير هذا لكفى؛ لأنّ الذي توجبه الخمر من هذا الفعل إنّما هو بزوال التمييز، ونقصان العقل، فإن جاء في تلك العمرات فعل يشبه أفعال السادات لم يكن فاعله محموداً، ولا كان ذلك الفعل إليه منسوباً، لأنه يندم عليه، ويعتذر منه بأنّ عقله لو كان حاضراً لنهاه عنه، وإن جاء في تلك الحال ما يخرج عن حدّ الاعتدال، وكان ذلك ممّا يتعدّر تلافيه، ويصعب طريق العذر فيه، كما أنّها تشجّع الجبناء، وتسمّح البخلاء، فإنها تسفّه العلماء، وتسخّف العقلاء، وقد كان صنف من القدماء يتركون الخمر والزنا تكرُّماً، وإن لم يكن ذلك في ملّتهم محرّماً. ولقد أحسن زهير حيث يقول:

أخي ثقةٍ لا تهلك الخمر ماله ولكنّه قد يهلك المال نائله
فهذا أحسن من قول طرفة:

أسدٌ غيلٍ فإذا ما شربوا وهبوا كلَّ أمونٍ وطمر
وفي هذا النحو يقول حسان بن ثابت:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما يُنهها اللّقاء
وهذا قبيح كله؛ لأنهم صيروا سبب السماحة والشجاعة زوال التمييز والمعرفة. وصاحب هذه الحال والمجنون سواءً بمنزلة؛ لأنه يأتي الشيء بغير معرفة، وأمثلة من هذا قول عنتره:

فإذا شربت فإنني مستهلكٌ مالي وعرضي وأفر لم يكلم
وإذا صحتُ فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي
وابن داود ينطلق في رؤيته وحكمه من نظرة عقدية صحيحة، فالخمر
مدمومة بالكلية، تذهب بالعقل، وتفقد شاربها التمييز، وتسلبه الوعي،
لكنه تناسى أنها عندهم في الجاهلية دليل فتوة -أحياناً- ومظهر قوة،
ودافع فخر، فلا باس أن ينطلقوا منها في مدائحهم، ويوظفوها في
مكارمهم، ويرون فيها ما لا يراه غيرهم من أصحاب العقيدة، وأرباب
الشريعة، فالقضية توزن بموازين عصرها لا بقوانين تالية غيرت
الأبجديات، وحرمت ما لم يكن قبل محرماً، وهي وإن ذمها بعض أهل
الجاهلية، ورأوا فيها مذهباً للكرامة، وسقوطاً للهيبة؛ فترفّعوا عنها،
وزهدوا فيها، فثمة من احتسوها وفي قناعتهم أنها من دلائل الرجولة
والفتوة، ومبعث السعادة والأريحية، مما كان مألوفاً حينئذ، و عليه فمثل
أقوالهم مقبولة في بابها؛ استناداً على معتقداتهم قبل الإسلام، فلتحاكم
أفكارهم بموازينهم، وتقاس معانيهم استحساناً واستهجاناً، قبولاً ورفضاً
بما كان سائداً آنذاك.

ورد في الموروث النقدي عند العرب بيتا عنتره^(٤٧):

فترى الدُّبابَ بها يُعْنِي وَحُدَّهُ غَرِدًا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمُتَرَّمِ
هَزَجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَكْبِّ عَلَى الزُّنَادِ الْأَجْدَمِ

في معرض الاستحسان والإعجاب، وقد أشاد بهما النقاد العرب،
وأثنوا على بديع وصف عنتره، وحسن تصويره، وجعل بعضهم قوله من
التشبيهات العقم التي لم يأت سابق ولا لاحق بمثلها^(٤٨)، وقالوا: "لم
يدع الأول للآخر معنى شريفاً ولا لفظاً بهياً إلا أخذه، إلا بيت عنتره^(٤٩)".
وقد حاول بعض الشعراء اللاحقين أخذ معنى عنتره فقعدت بهم
موهبتهم، ولم يستطيعوا أن يزيدوا فيه، أو يضيفوا إليه، فافتضحوا في
أخذه، ومن هؤلاء أبو محجن الثقفي الذي راقه تشبيه عنتره صوت أجنحة
الذباب بالشارب المترنم، فقال في وصف قينة:

وترفع الصوت أحياناً وتخفضه كما يطنّ ذباب الروضة الغرد
وقد علّق ابن رشيق^(٥٠) على البيت بقوله: فأيّ قينة تحب أن تشبهه
بالذباب؟ وقد سرق بيت عنتره وقلبه فأفسده.

لقد قلب أبو محجن تشبيه عنتره فشبهه صوت القينة المطرب بطنين
الذباب الغرد، والمغنية الحسنة لا تشبهه في صوتها بصوت الذباب ولو كان
غرداً مترنماً، فأيّ مزية في ذلك؟ وأي إحسان تستدعيه صورة الذباب
فيفكه ويطرب، لقد أساء أبو محجن من حيث أرد الإجابة، وخالفه
الصواب حين أراد الغوص على معنى دقيق، وتشبيهه مصيب، بخلاف
عنتره الذي قصد إلى المعنى فأصاب المحزّذقة وصف، وحسن رصف.
يقول عنتره^(٥١):

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا فَدَنْ لَأَقْضِي حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ

أورد الأمدى في "موازنته"^(٥٢) قول البحترى:

قف العيس قد أدنى خطاها كلالها وسل دار سعدى إن شفاك سؤالها
ثم علّق عليه بقوله: هذا لفظ حسن، ومعنى ليس بالجيّد؛ لأنّه قال
"قد أدنى خطاها كلاله"، أي: قارب من خطوها الكلال، وهذا كأنه لم
يقف لسؤال الدار التي تعرض لأنّ يشفيه سؤالها، وإنما وقف لإعياء
المطي.

والجيّد قول عنتره؛ لأنّه لما ذكر الوقوف على الدار احتاط بأن شبهه
ناقته بالقصر، فقال:

فوقفت فيها ناقتي، وكأنّها فدَنْ؛ لأقضي حاجة المتلوم

قال ذلك ليعلم أنه لم يقف بها ليريحها.

وقبل مناقشة الأمدى في تخطئته البحترى، وتفضيله قول عنتره عليه ثمة
سؤال يفرض نفسه مفاده: هل من العيب أن يقطع الرجل المسافات
وصولاً إلى دار محبوبته؟، وهل يعيب ناقته إعياءها وقد قطعت المفاوز من
جرائها؟، وهل الناقة تبقى على نشاطها في نهاية الشوط كأوله؟.

إنّ الإجابة لا تحتاج إلى إعمال عقل، وكدّ فكر، فالناقة متى قطعت
المسافات وصولاً إلى غاية صاحبها يصيبها الكلال، ويحلّ بها الإعياء،
فتتقارب خطواتها، ويقلّ نشاطها، وهذا يشي من طرف بالمكابدات
المتحملة في سبيل الغاية المرتجاة من جهة، ومن أخرى يلمح إلى أنّ مثل

محبوبته تستحق ما بذل من جهد و تعب ، فلو لم ينل في سبيلها ما قاساه لما كان لصدق دعواه في عشقه دليل وبرهان.

وفيها إشارة خفية إلى أنّ تلك غايته، ومنتهى أمله، متى وصلها يريح ناقته المجهدّة، فليس وكده طريقاً آخر يسلكه، أو هدفاً يقطعه، وهو في بلاد اتسعت رقعتها، وتباعدت أطرافها، بخلاف عنتره الذي تعودت ناقته المشقّات، وعهدت الصعاب، فهي قوية كصاحبها، صلبة كعمّتها، لم تركز لراحة، أو تألف الاستكانة، فمثلها مع مثله لا يصيبها الإعياء أو الجهد، وإن أصابها لا يصرّح به الفارس الجاهلي حفظاً لفروسيته، وصوناً لناقته.

ولا يخلو رأي الأمدي من وجهة يقررها المعنى تصرّيحاً عند الشعاعين، فعنتره جعل ناقته قصراً لم يصبها الإعياء، فلم يكن وقوفه راحة لها من كلال، أمّا البحترى فأصاب ناقته التعب فقاربت خطوها، مما جعل وقوفه كأنه راحة لمطيته لا لإشفاء نفسه بسؤال الديار، لكن يبقى رأيه على كل حال مجرد رأي غير قاطع، فهو يحتمل القبول والردّ، فثمة معان خفية يتضمنها النص تعفي البحترى من التخطئة، وليس في الكلام قرائن تمنعها أو تجعلها مستبعدة غير مستساغة.

ويتصل مما نحن بسببه ما أورده أبو هلال العسكري^(٥٣) من قوله: قال

أبو نواس في وصف الناقة:

ولقد نجوتُ في الفلاة إذا صامَ النهارُ وقالت العُفْرُ
شدنيّة^(٥٤) رعت الحمى فأتت ملءَ الجبالِ كأنها قصرُ

أخذه من قول عنتره:

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنها فدنُّ لأقضي حاجة المتلوم
إلا أن بيت أبي نواس أحسن رصفاً.

شبه أبو نواس ناقتة بالقصر قوة وضخامة، وجعلها أصيلة لانتسابها إلى قبيلة شدن التي تنسب الإبل إليها، وأضاف أنها كالجبل شموخاً وصلابة، كل ذلك في بيت أحسن رصفه، وأجاد سبكه، لكنه أوقفه على وصف ناقتة بالقوة والضخامة، وهذا ما أوجزه عنتره في كلمتين «كأنها فدنُّ»، لذا لم يصبها الإعياء، وزاد على أبي نواس العلة من رحلته، ووصف ناقتة بقوله: «لأقضي حاجة المتلوم»، فله فضل السبق في تشبيه الناقة بالقصر، ومزية الزيادة في ذكر العلة من وراء الوصف، وفوق ذلك حسن السبك، وقوة الرصف، ودقة التشبيه، وإيجاز العبارة، إضافة إلى رحمته بالحيوان رغم قوته، وتناغمه معه بإضافته إلى نفسه في قوله «ناقتي»، وكان على المتأخر وقد أتاه المعنى سلسلاً طيباً أن يزيد عليه ما يستحق به الإشادة والذكر.

ذكر الأمدى في موازنته^(٥٥) قوله: قال عنتره:

فشككتُ بالرمح الأصم ثيابه لئس الكريم على القنا بمحرّم
أخذه أبو تمام فقال:

يحملن كل مدجج، سمر القنا بإهابه أولى من السربال

قال ذلك لأنه ظن أنّ عنتره أراد الثياب نفسها، وإنما أراد عنتره بقوله "ثيابه" نفسه.

يقول ابن قتيبة^(٥٦): «ثيابه يريد قلبه ويقال جسمه؛ لأنّ الثياب على الجسم تكون»، ووافقه على ذلك اليوسي في "زهر الأكم"^(٥٧)، فقال: وفي البيت مجاز مرسل علاقته ما بين الجسم والثياب من المجاورة التامة، والقرينة قوله: «فشككت» إذ المراد بالشك الطعن، وهو إنما يكون في الأجسام لا في الثياب.

وليس من المقبول أن يغيب عن أريب فطن كأبي تمام مراد عنتره من قوله: «فشككت بالرمح الأصمّ ثيابه»، وأنه يريد قلبه أو نفسه، فالشاعر في مجال الفخر، وأيّ فخر يتبادر إلى الذهن متى كان المعنى على ظاهره؟، إنها سذاجة لا تنطلي على من له قليل دراية بالعربية، فما بالك بشاعر مفلق، وأديب مصقع، امتلك ناصية اللغة، وغاص على شواردها، وأقام منادها، فأتته طيّعة منقادة، يصوغ من فرائدها ما يعجب ويبهز. إنّ في قول الأمدي تعقيباً على بيت أبي تمام «قال ذلك لأنه ظن أنّ عنتره أراد الثياب نفسها» تجنّياً واضحاً، ومبالغة لا تقلّ بحال عن مبالغات الشاعر في شعره، وغلوّه - أحياناً - في وصفه.

ذكر الأمدي قول عنتره:

وَأَنَا الْمَنِيَّةُ فِي الْمَوَاقِفِ كُلِّهَا وَالطَّعْنُ مِنِّي سَابِقُ الْأَجَالِ

ثم عقب بقوله: وإنما أراد الأجال سابقة طعني؛ لشدة خوفه إذا سدّد سنانه

للطعن، ثم قال: أخذه الطائي فغيره تغييراً حسناً فقال:
يَكَادُ حِينَ يُلَاقِي الْقِرْنَ مِنْ حَنْقٍ قَبْلَ السَّنَانِ عَلَى حَوْبَائِهِ يَرِدُ
وفي قول عنتره غلو وإفراط، فهو المنية في كل المواقف، ويموت أعداؤه
فرقاً قبل أن يوجه لهم طعنات نافذة، وضربات مميتة، وهذا ما دفع
الجاحظ^(٥٨) إلى إيراد البيت في مؤلفه مسبوقاً بقوله: «الإسراف في صفة
الضرب والطعن»، ثم أردف ذلك معقّباً: وإذ قد ذكرنا شيئاً من الشعر في
صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من
إسراف من أسرف، واقتصاد من اقتصد. فأما من أفرط... ومما يدخل في
هذا الباب قول عنتره.

وتابعه ابن قتيبة^(٥٩) فعدّ قوله من باب الإفراط في الشعر.
وحكم الأمدى في تأثر أبي تمام بعنتره في بيته جليّ لاشك فيه، وقوله
"أخذه فغيره تغييراً حسناً" له ما يدعمه من حسن النظم، وقوة الرصف،
لكن يبقى لمعنى عنتره قوة تمضي في أوصاله، وعنفوان يسري في ثناياه،
فحكمه قاطع لا يتطرق إليه شك، وحتمي لا يقبل الردّ أو النقد، بخلاف
معنى أبي تمام الذي فتح من دونه منافذ الريب بقوله في مستهل بيته "يكاد"
التي تفيد المقاربة لا القطع، والشك لا اليقين، وكان عليه وقد وقف على
معنى عنتره أن يتخير لمفتحه مفردة مؤكدة لمعناه كسابقه، وأن يأتي به في
أنساق حاتمة، وأحكام نافذة لا أن يسوقه مساق الشاكّ المقارب.

(للبحث صلة)

الهوامش:

- * جامعة القصيم - كلية العلوم والآداب بالرس - قسم اللغة العربية - الرس - القصيم.
- (١) **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٤٤/١، وانظر: **خزانة الأدب** ١/١٢٧.
- (٢) **العقد الفريد** لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/١٤٠٤هـ، ج ٦/٣، وانظر كذلك **نهاية الأرب في فنون الأدب** للنويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١/١٤٢٣هـ، ج ١٥/٣٣٨.
- (٣) **انظر ديوان المعاني** لأبي هلال العسكري، دار الجيل، بيروت ١١١، **لباب الآداب** للثعالبي، تح: أحمد حسن لبح، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ط ١/١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ١١٩، **لباب الآداب** لأسامة بن منقذ ٢١٧، **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب** لابن سعيد الأندلسي، تح: د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ص ٥٤٥، **شرح المعلقات السبع ٢٣٨ الأغاني** لأبي الفرج الأصفهاني، تح: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر لبنان، ٢٥٠/٨، **المحاضرات والمحاورات للسيوطي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ، ص ٢٤٩، **شعراء النصرانية**، جمعه وصححه: رزق الله ابن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠م، ٦/٧٩٧.
- (٤) ذكر الألباني في تخريج الحديث قوله: منكر. أخرجه أبو الفرج الأصبهاني في "الأغاني" عن ابن عائشة، وهذا إسناد ضعيف معضل، فإنَّ به ابن عائشة هذا من شيوخ أحمد وأبي داود وهذه الطبقة، فينه وبين النبي ﷺ مفاوز، واسمه: عبيد الله ابن محمد بن حفص. القرشي التيمي، يعرف بالعيشي وبالعائشي وبابن عائشة، لأنه ولد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وهو راوي قصة "طلع البدر علينا". انظر: **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة** لناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج ١٤/٢٧.

- (٥) الموازنة بين أبي تمام والبحتري للأمدي، تح: السيد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ج١/٣١١.
- (٦) العمدة لابن رشيق ١/٢٨٠.
- (٧) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، تح: هشام الشاذلي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٩٧.
- (٨) الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء للمرزباني، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت/لبنان، ط١/١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ص٤٥.
- (٩) انظر السرقات الأدبية لبدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤/١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، ص٣٩.
- (١٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج١/١٢٩.
- (١١) شرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٤٥.
- (١٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١/٩١.
- (١٣) ديوان عنتره، تح: محمد سعيد مولوي ٢١٤.
- (١٤) لباب الآداب، ج١/١١٩. (١٥) العمدة ١/٢٨٣.
- (١٦) انظر حلية المحاضرة للحاتمي، تح: د. جعفر الكتاني، وزارة الثقافة العراقية، ١٩٧٩م، ج١/٢٠٦.
- (١٧) السابق ٢٠٦.
- (١٨) ديوان عنتره ٢٠٩. (١٩) الأشباه والنظائر، ص٤٩.
- (٢٠) الأشباه والنظائر ٤٠. (٢١) السابق.
- (٢٢) العمدة ٢/٢٩٠.
- (٢٣) الأمالي لأبي علي القالي، تح: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية ط٢، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م، ج٢/٧٢، وانظر سمط اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري، نسخه وصححه عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ج١/٧٠٦.

- (٢٤) **الأشباه والنظائر** ٤٨ . (٢٥) **صُداء** و**خَتَمَ** هما قبيلتان حاربا الشاعر وتحالفا عليه.
- (٢٦) **دعج**: اسم فرسه. (٢٧) **ازور**: مال.
- (٢٨) **اللبانة**: الصدر. (٢٩) **التحمحم صوت** متقطع ليس بالصهيل.
- (٣٠) **العمدة** ٢/٢٩٠.
- (٣١) **المنصف للسارق والمسروق منه** لابن وكيع، تح: عمر خليفة بن إدريس، نشر جامعة قات يونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٤م، ص٦٤٨.
- (٣٢) **الكامل في اللغة والأدب للمبرّد**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢/٩٢.
- (٣٣) **أبو الوليد الأنصاري** هو: مسلم بن الوليد مولى أسعد بن زرارة الخزرجي، شاعر يعرف بصريع الغواني، وهو كوفي نزل بغداد، وكان مداحاً محسناً مجيداً مفوهاً بليغاً، مدح هارون الرشيد والبرامكة، والرشيد سمّاه: **صريع الغواني**. **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، تح: د. بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج١٥/١١٦.
- (٣٤) **المنصف للسارق والمسروق منه** ٢٥٩.
- (٣٥) **المسرودة**: المنسوجة. يريد مفرشى ظهر حصاني. وقميصي: درع من حديد متتابعة النسيج، يعنى أنه ليس من أهل التنعم، بل من أهل البدو والغزو. والاستدراك من باب استتباع المدح بما يشبه الذم، مبالغة في المدح.
- (٣٦) **الحشية من الثياب**: ما حشي بقطن أو صوف أو غيرهما، والجمع الحشايا. العبل: الغليظ، والفعل عبل عبالة. الشوى: الأطراف والقوائم. النهد: الضخم المشرف. المراكل: جمع المركل وهو موضع الركل، والركل: الضرب بالرجل، وافعل رَكَلَ يَرُكُلُ. النبيل: السمين، ويستعار للخير والشر لأنهما يزيدان على غيرهما زيادة السمين على الأعجف. المحزم: موضع الحزام من جسد الدابة.
- يقول: وحشيتي سرج على فرس غليظ القوائم والأطراف ضخم الجنبين منتفخهما سمين موضع الحزام، يريد أنه يستوطئ سرج الفرس كما يستوطئ غيره الحشية،

ويلازم ركوب الخيل لزوم غيره الجلوس على الحشية والاضطجاع عليها، ثم وصف الفرس بأوصاف يمدونها وهي: غلظ القوائم وانتفاخ الجنين وسمنهما. (٣٧) **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** للثعالبي، تح: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج ٢/٤٦٤.

(٣٨) **الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء** ٦٤-٦٦.

(٣٩) **أسد غيل الغيل بالكسر**: شجر مُلْتَفٌ يُسْتَرُّ فِيهِ كَالْأَجْمَةِ.

(٤٠) **الأمون**: الناقة المستوية الحلقة المكتملة.

(٤١) **فرس طمر**، بتشديد الراء وهو المستعد للوثب والعدو. يقول: إذا سكروا جادوا بالنجائب من الإبل والعتاق من الخيل.

(٤٢) **العقد الفريد**، ج ٦/٢٠٦.

(٤٣) **البديع في نقد الشعر** لأسامة بن منقذ، تح: د. أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص ٢٢٣.

(٤٤) **نهاية الأرب** ج ٤/١٠٦.

(٤٥) **انظر خزانه الأدب** ج ٥/٥٢. وقد ذكر البغدادي بعد بيت الخرنق قوله: وقد عيب على طرفه قوله:

فَإِذَا مَا شَرِبُوهَا وَانْتَشَوْا وَهَبُوا كُلَّ أَمُونٍ وَطَمْرٍ

وعيب على حسان قوله: الوافر وَقَدْ قَالَ الْبَحْتَرِي فِي هَذَا فَأَحْسَنُ:

تَكَرَّمَتْ مِنْ قَبْلِ الْكُؤُوسِ عَلَيْهِمْ فَمَا اسْطَعْنَ أَنْ يَحْدِثْنَ فِيكَ تَكَرُّمًا

وأول من نطق بهذا امرؤ القيس في قوله: الطويل

سَمَاحَةٌ ذَا وَبَرٍّ ذَا وَوَفَاءٌ ذَا وَنَائِلٌ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكَرَ

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فِي الْحَالَيْنِ جَمِيعًا: فِي حَالِ الصَّحْوِ وَفِي حَالِ السُّكْرِ. وَهَذَا هُوَ

الْمَدْحُ التَّامُّ. ثُمَّ اتَّبَعَهُ زُهَيْرٌ فَقَالَ: الطَّوِيلُ

أَخُو ثِقَةٍ لَا تَتَلَفُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَهْلِكُ الْمَالُ نَائِلَهُ

- (٤٦) الزهرة لابن داود الأصبهاني، تح: د. إبراهيم السامرائي، ونوري القيسي، مطبعة المنار، الأردن، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ج٢/٧٢٥-٧٢٦.
- (٤٧) ديوان عنتره ١٩٧-١٩٨، وفي البيت الأول شبه صوت الذباب بصوت الشارب المترنم، وفي الثاني شبه الذباب حين وقع في الروضة فحك إحدى ذراعيه بالأخرى برجل مقطوع الكفين يوري زناداً فهو يمد بين ذراعيه إذ لم يكن له كفان يمر بينهما فلا تقتدح، فيستمر في قدحه لا يفتر.
- (٤٨) العمدة ج١/٢٩٧ (باب التشبيه).
- (٤٩) البيان والتبيين ٣/٢١٤.
- (٥٠) العمدة ١/٣٠٢.
- (٥١) ديوان عنتره، والغدن: القصر، والمتلوم: المتمكث. والمعنى: يقول: حبست ناقتي في دار حبيبتني، ثم شبه الناقة بقصر في عظمها وضخم جرمها، ثم قال: إنما حبستها ووقفها فيها لأقضي حاجة المتمكث بجزعي من فراقها وبكائني على أيام وصالها.
- (٥٢) الموازنة بين أبي تمام والبحثري للآمدي، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط٤، ص٣٧٨-٣٧٩.
- (٥٣) ديوان المعاني، ج٢/١٢١.
- (٥٤) شدن: أرض أو قبيلة تنسب الإبل إليها.
- (٥٥) الموازنة ١/٨٠.
- (٥٦) المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة، تح: المستشرق د. سالم الكرنكوي وعبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ج١/٤٨٦.
- (٥٧) زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن بن اليوسي، تح: د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١/٢٨٩.
- (٥٨) الحيوان ٦/٥٤١. (٥٩) الشعر والشعراء ١/٢٤٧.

اللغة العربية وسؤال العصر التكنولوجي

(٢)

بقلم: د. سمر الديوب ❖

٤ - ٢ - التجربة السورية في تعليم اللغة العربية لغير المختصين بها بالطريقة
التواصلية

اعتمد المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا بدمشق نظرية تربوية حاسوبية اقترحتها باحثة تعمل في جامعة كورنيل الأمريكية، مختصة بالمناهج ووسائل التعليم، وتدعى نعمت حافظ البرزنجي^(١) وتعتمد هذه النظرية على بناء نظام حاسوبي لتعلم اللغة باعتماد مبدأ التعلم الذاتي بالحاسوب. وتقوم هذه النظرية التربوية الحاسوبية على جمع الخبرات اللغوية والمعلوماتية، وتبني العديد من الأنظمة الحاسوبية التي تعالج اللغة.

وقد أخذ مشروع هذا المعهد على عاتقه مستوى تعليم الأجنبي اللغة العربية، ومستوى تعليم الأطفال، ومستوى تعليم الطلاب العرب في المستوى الجامعي؛ فسمّي بنظام تعليم اللغة العربية من قبل غير المختصين بها بالطريقة التواصلية^(٢).

وقد هدف هذا المشروع إلى جعل الحاسوب من صلب المنهاج التربوي، لا مجرد وسيلة، يفيد في التعلّم الذاتي، وقابل للتطبيق على مواد دراسية أخرى باللغة العربية.

ويفترض -بناء على ذلك- أن يكون المتكلم هو المخطط، والباحث للعملية التربوية، وهو الذي يجري القياس المنطقي بين الأمور، ويتعلّم، ويغيّر المفاهيم من خلال تفاعله مع الحاسوب، فيغدو قادراً على الربط بين قواعد اللغة العربية، وقواعد استعمالها من خلال بناء قاعدة معرفة للغة تتضمن قواعدها الأساسية.

يهدف أيضاً ذلك كله إلى إيجاد قاعدة معرفية باللغة العربية تشمل الجذور، والصفات، والأسماء، وجميع القواعد الممثلة تمثيلاً وظيفياً. وقد قامت د. رنداوي بوضع تصور لنموذج برمجي يعتمد على تضافر ثلاثة محاور^(٣): محور تربوي حاسوبي للتعلّم. فمن يتعلّم اللغة العربية يحتزن في ذاكرته لغته الأمّ، ويقيس عليها؛ لذا سيجد صعوبة في التذكير والتأنيث مثلاً أو الإسناد إلى الضمائر.

ومحور لغوي يتعد عن طريقة التدريس التقليدية: نحو، صرف، إملاء، نصوص... فتغدو الحصة مزيجاً من النحو، والصرف، والإملاء، والنصوص.

ومحور معلوماتي اعتمد على مفهوم الكتلة نصّاً بنيت عليه أربع وحدات "نحو، صرف، إملاء، ثقافة" ويتوافق مع المعلومات فيديو، وصورة،

وصوت "تقنيات متعددة الوسائط Multimedia"، ويمكن أن يستعرض فقرات النص، ويعرض شريط فيديو يرافق كل فكرة؛ ليتمكن من سماع العربية بالنطق السليم، وتعريف موضوع النص من خلال الحوار المسموع؛ فيختار المتكلم إحدى الوحدات، ويتدرج في عرض الأسئلة، فيزيد وعيه حول الفكرة من خلال تفاعله مع الحاسوب عبر أسئلة يقدمها له. ولا يعطى الجواب، ولا القاعدة النحوية بل يعطي المستثمر الفرصة ليكرر المحاولة التي تؤدي إلى زيادة وعيه بالمفهوم تدريجياً. وبعد المحاولة الثالثة تعطي البرمجية رسالة مساعدة تشرح معنى المفهوم دون إعطاء القاعدة. فلا يفيد سرد قاعدة نحوية في إعطاء معلومة. وحين ينجز المستثمر مرحلة يعني ذلك أنه استوعبها استيعاباً كاملاً. فحين يستوعب أدوات الاستفهام ينتقل إلى مرحلة الأدوات المعربة منها، والأدوات المبنية من خلال الحركات المرفقة بالألوان، وقراءتها بالحاسوب؛ وبذا يتبصر المتكلم بالمفهوم اللغوي "أي القاعدة الإعرابية فقط" ثم ينتقل إلى المرحلة الثالثة "إعراب أسماء الاستفهام" وعليه أن يستنتج الإعراب من خلال الأمثلة بعد أن أدرك القاعدة، ووعاها بنفسه، فيدرك أن "كيف" اسم استفهام مبني بالفتح، ثم يصل إلى مرحلة فهم معنى التركيب، ومحله. ويمكنه استعمال زرّ مساعدة إن لم يتمكن من الوصول إلى الإجابة. ويمكن بعد هذه التفاصيل أن يعود إلى الجملة الأصلية، ويعربها بعد أن فهم الكامن وراءها، وربط هذا المفهوم بطريقة الاستعمال، ثم ينتقل إلى مرحلة إجراء التدريبات على الفكرة التي سأل عنها.

وثمة مرحلة الرسوم، والتعريب. فتعرض له الرسوم ذات الأصل العربي أو الأجنبي في شاشة تنقل له قصة الرسم. مثل وافق شنُّ طبقة، أما التعريب فهو معرفة الألفاظ التي أدخلت إلى العربية، وهي ليست منها مثل كلمة تلفاز من Television فقد أخذ منها تلفاز على وزن فعال، وتلفز، ومتلفز، وتلفاز. وقد سعى واضعو هذا البرنامج إلى وضعه على الشبكة، ويرغبون في تطويره خدمة للغة العربية.

٤-٣- عوائق استخدام الشبكة في تعلّم اللغة العربية في سورية وسلبياته

يعدّ المنهج الحاسوبي منهجاً ذا نهاية مفتوحة، يركز على فلسفة التعلم الذاتي، وعلى مهارات التفكير العليا، ويعني في معنى من المعاني مدرسة غير محددة المكان والزمان. ومما لاشك فيه أنّ الطالب الذي يتلقى المعلومة بطريقة مخالفة للطريقة التقليدية يقلل زمن التعلّم، ويزيد التحصيل. يقول مثل صيني: ما أسمعته أنساه، وما أراه أتذكره، وما أعمله بيدي أتعلمه. ويعدّ التعليم عبر الحاسوب المتصل بالشبكة مثلاً حياً للحصول على المعلومات من مختلف أنحاء العالم؛ إذ يساعد على التعلم التعاوني الجماعي، ويتصل بالعالم بأقل كلفة. كما تساعد الشبكة على توفير أكثر من طريقة في التدريس، وتسهل الإفادة من البرامج التعليمية الموجودة عليها، ومن بعض الأفلام الوثائقية. ومن خلالها يتمّ الاطلاع على آخر الأبحاث العلمية، والتربوية، وآخر الإصدارات من مجلات، وكتب، ونشرات.

وفي سورية ثمة عوائق أمام استخدام الانترنت في تعلّم اللغة العربية
تتمثل بما يلي :

- الحاجة إلى وضع مناهج صحيحة تنتشر على الشبكة ، وتوفير
الكوادر القادرة على ذلك.

- غياب الخطة الوطنية ، ومحدودية المحتوى في السوق

- التكلفة المادية لتوفير هذه الخدمة ؛ إذ يحتاج تأسيس الشبكة إلى
خطوط هاتف بمواصفات معينة ، وحواسيب معينة.

- بطء خطوط الشبكة ، وانقطاعها ، وما إلى ذلك من مشكلات فنية
الأمر الذي يؤدي إلى فقدان معلومات. وقد يكون من الصعوبة بمكان
الدخول إلى الشبكة ، أو الرجوع إلى مواقع البحث التي كان يتم التصفح
فيها.

- تطبيق هذه التقنية حتى الآن أقل من المتوقع ، ويسير ببطء شديد.

- عزوف الكثيرين عن استخدام هذه التقنية من أعضاء هيئة التدريس
من مبدأ أنّ المرء عدو ما يجمله. ويعود ذلك إلى عدم الوعي بهذه التقنية
من جهة ، وعدم القدرة على استخدامها ثانياً ، وعدم استخدام الحاسوب
ثالثاً. وتُحلّ هذه المشكلة بإخضاع المعلمين لدورات تدريبية حول كيفية
استخدام هذه التقنية في التعليم.

- قلة وجود قواعد بيانات يمكن الاطمئنان الكامل إليها مكتوبة باللغة
العربية.

- ضرورة توافر الأدوات المساعدة على عملية البحث وسط هذا الكم الهائل من المعلومات. فثمة أدوات بحوث في الانترنت مثل : Gopher, FTP.

أما سلبيات هذه الطريقة فتتمثل في النقاط التالية :

- ضعف التواصل بين الطلاب.

- اختلاف التوقيت مع اختلاف البلدان في حال التعلم عن بعد.

- المتديات المنتشرة على الشبكة تعتمد -أغلبها- على اللهجات الخليجية، والشامية، والمغربية.. ويشكل هذا الأمر حجرة عثرة أمام الباحث عن المعلومة الصحيحة.

أما ضرورة هذه الطريقة في التعليم فتتمثل بما يلي :

- تمكن هذه الطريقة من استخدام اللغة العربية في سياقاتها الوظيفية والمعاصرة من خلال تنمية المهارات الأربع : القراءة، والمحادثة، والكتابة، والاستماع.

- تمكن من الإفادة من نظم البرمجة والتطبيقات المعدة للمستخدم العربي مثل نظم الصرف الآلي الذي يحلل الكلمة إلى عناصرها الاشتقاقية والتصريفية، والإعراب الآلي، والتحليل الدلالي الذي يستخلص معاني الكلمات من سياقاتها، ويحدد مدى ارتباط الجمل بعضها ببعض.

- تمكن من الاعتماد على مخبر لغوي، وأشرطة مسجلة مصورة بلوحات توضيحية ملونة، ومواقع شبكة مميزة.

تعدّ هذه الطريقة في التعليم على الرغم من سلبياتها، ومعوقاتها طريقة تناسب حاجة العصر؛ لأنّ متعلّم اللغة العربية يصبح شريكاً في عملية التعليم، فينمّي قدراته الذاتية، كما ينمي مهاراته التقنية؛ إذ يفترض أن يكون له القدرة على استخدام الوورد، والبويروينت، والويندوز، وفهم آلية عمل الشبكة، والقدرة على استخدام المتصفح، والبريد الإلكتروني.

٤-٤- استخدام البريد الإلكتروني في تعليم اللغة العربية

مما لا شك فيه أنّ استخدام التكنولوجيا في خدمة اللغة العربية أصبح ضرورة ملحة، لا خياراً. ولا يعني استخدام التكنولوجيا حلاً سحرياً لمشكلات اللغة العربية. فالمهم من هذه العملية العمليات التي يتمّ بها إنتاج المعرفة، وبنائها. ولعلّ الفكرة المهمة هنا هي فكرة الأمن اللغوي، والثقافي، والاجتماعي. ونقصد من ذلك كله ضرورة الحفاظ على الهوية في خضم بحر التكنولوجيا.

ويرى بعض الباحثين أنّ البريد الإلكتروني من أكثر خدمات الانترنت استخداماً؛ لسهولة استخدامه؛ إذ لولا وجود البريد الإلكتروني لما وجد الانترنت.

ويمكن الاستفادة من البريد الإلكتروني، واستخدام قوائم بريدية List server للفصل الدراسي الواحد، تتيح للطلبة الحوار، وتبادل الرسائل والمعلومات فيما بينهم. و"كثير من الناس يستكثرون الوقت الذي يمضونه في تعلّم البريد الإلكتروني وميزاته لكنه استثمار حقيقي في الوقت والجهد والمال"^(٤).

ويمكن أن يتعامل الطالب والأستاذ عبر البريد الإلكتروني، فيحاور أحدهما الآخر، ويصحح الأستاذ، ويجيب عن الأسئلة. كما يمكن استخدام البريد الإلكتروني وسيلة اتصال بين الأساتذة أعضاء هيئة التدريس، والمدرسة. فكلفته قليلة، وفائدته كبيرة في الدراسات الخاصة والاستشارات، كما أنّ الرسالة تصل بسرعة من غير وجود وسيط بين المرسل والمستقبل. إضافة إلى ميزة إرفاق ملفات عبره، وإمكان إرسال رسائل متعددة إلى جهات مختلفة في الوقت نفسه.

٥- صفات المعجم الحاسوبي المرجوة

من القول المعاد إنّ ثمة تقصيراً عربياً في إعداد معجم حاسوبي للغة العربية. فلا يعني توافر المعجمات العربية على أقراص مدمجة، أو على الشبكة أنها معجمات حاسوبية، بل هي نسخ الكترونية من المعجمات الورقية. فلا تملك من خصائص المعجم الحاسوبي سوى النص؛ لذا يمكن القول إنّ طموحنا يتمثل في معجم حاسوبي حدائث لغوي، عام، أحادي اللغة، يفيد الناطقين باللغة العربية ومن يرغب في تعلمها، كما يفيد مستويات المتعلمين جميعها، ويعمل بأنظمة التشغيل الحاسوبية كلها، يفتح على الشبكة، ويعرض المعلومات المعجمية بطريقة عرض ميسرة، ويحتوي قوانين تمكنه من إجراء عمليات بحث متقدمة، ومن اشتقاق الأفعال والأسماء والصفات بمستوياتها كافة.

وثمة خلاف بين المعاجم الورقية؛ لذا يفترض بالمعجم الحاسوبي حسم

الخلافات، والابتعاد عنها، واعتماد الراجح منها. كما يجب أن يشمل هذا الحاسوب على المواد التي دخلت العربية، واكتسبت خصائصها. كالكلمات التي اشتهرت في هذا الميدان: "بستر، كهرب...". وينبغي التقليل من الاستطراد في الأمثلة، وتقديم مثال وظيفي عن كل فكرة، والاهتمام بدلالة الكلمة ضمن سياقها. فكلمة يد مثلاً تأخذ أكثر من دلالة: ف"يد بيضاء، ويد الشمال، ويد الله...".

كما ينبغي تحديد المعلومات اللغوية، والصرفية، والنحوية، والدلالية لمفردات المعجم. فيذكر الفعل بحالاته كلها: لازم، أو متعد، متعد إلى فعل أو فعلين، تعديته الصحيحة إلى حروف الجر، تحديد الباب التصريفي للأفعال، وتحديد الكلمة من جهة التذكير والتأنيث، والاسمية والفعلية، والمصدر، والصفة، والمنع من الصرف، والجمود والاشتقاق.. وتحديد جموع التصحيح والتكسير للأسماء والصفات، والجموع القياسية والسماعية والشاذة. والتنبيه على الأخطاء الشائعة من قبيل: تعرف الشيء، لا تعرف عليه، وتكلم على، وتحذث عن... والتنبيه على الفروق بين الألفاظ متقاربة المعاني مثل بلى ونعم، وخطأ وغلط، ونور وضياء.

من وجه نظرنا أهم ما يجب أن ينضوي عليه المعجم الحاسوبي المجالات الدلالية، والمترادفات، والأضداد؛ إذ تفتقر معجماتنا الورقية، والمدمجة إلى وجود كلمات ذات صلة دلالية بكلمة ما. ويساعد هذا الإجراء الباحث

على اختيار الكلمة الأكثر ملاءمةً للسياق الذي يعمل عليه. فللأفعال أحبّ، وله، اشتاق، شغف، صبا، فتن، لهج، ولع... دلالات مختلفة مع أنها في الظاهر منتظمة في مجال دلالي واحد. وسيتفرع عن هذه القائمة من الأفعال مصادر، وصفات تحمل الدلالة نفسها. كما يجب وضع العبارات الاصطلاحية، ومعانيها الصحيحة؛ ليتم استخدامها بشكل صحيح، وكمثال على ذلك: "اختلط الحابل بالنابل، زاد الطين بلة، طاهر الذليل، روح رياضية..." إضافة إلى احتوائه المصطلحات التي تجمعت لدى مكتب تنسيق التعريب في العلوم كافة.

ويمكن أن نتصور ما يحتويه المعجم وفق الجدول التالي^(٥):

رقم مفتاح الفعل، الجذر، الفعل، وزنه، التعدية، حروف التعدية، الفاعل، المفعول به، المعنى، المعنى السياقي، الخطأ الشائع المتعلق به، ما يترادف معه	جدول الأفعال
رقم مفتاح الاسم، الجذر، الاسم، جنسه، نوعه، معناه، حالته، مترادفاته وأضداده، المعنى السياقي	جدول الأسماء
رقم الفعل، شيوخ المصدر، وزنه، جنسه	جدول المصادر
رقم الاسم، شيوخ الجمع، جمعه، وزن الجمع	جدول جموع الأسماء
رقم متسلسل، الجذر، التركيب، معناه، شيوخه، التركيب الاصطلاحي	جدول التراكيب
رقم مفتاح الاسم، أمثلة الاسم	جدول أمثلة الأسماء

جدول الصفات المشبهة	رقم الفعل، الصفة المشبهة، رقمها، شيوخها، جمعها، وزن جمعها
جدول أمثلة الأفعال	رقم الفعل، الأمثلة الوظيفية
جدول جموع الصفات المشبهة	رقم الفعل، رقم الصفة المشبهة، شيوخها، جمعها، وزن الجمع
جدول مبالغة اسم الفاعل	رقم الفعل، مبالغة اسم الفاعل، رقمها، شيوخ المبالغة، وزنها، جنسها
جدول الأدوات	رقم متسلسل، الأداة، عملها، معناها، شيوخها
جدول فاعيل بمعنى مفعول	رقم الفعل، شيوخ فاعيل بمعنى مفعول، فاعيل بمعنى مفعول
جدول جموع مبالغة اسم الفاعل	رقم الفعل، رقم المبالغة، شيوخ جمعها، جمع مبالغة اسم الفاعل، وزن جمع المبالغة
جدول أسماء الأصوات	رقم متسلسل، اسم الصوت، معناه، شيوخه
جدول أسماء الأفعال	رقم متسلسل، اسم الفعل، معناه، شيوخه
جدول فاعيل بمعنى فاعل	رقم الفعل، شيوخ معنى فاعيل بمعنى فاعل، فاعيل بمعنى فاعل

والسؤال الذي يثار الآن: كيف يمكن أن ندخل إلى المعجم الحاسوبي؟

ينبغي الاستفادة من معطيات العالم الرقمي لإيجاد طريقة سريعة وفعالة للوصول إلى الكلمة التي نريد. ويمكن الوصول إلى ذلك بعد أن نستعرض أنواع النص الرقمي:

٦- أنواع النص المعجمي الحاسوبي

يتفنن المبرمجون في ابتكار أساليب مختلفة من الترابط النصي. من أهمها: التوريق، والنص الشجري، والنجمي، والتوليقي، والجدلي. ويشرح المؤلف طريقتين للانتقال بين النص المترابط "أي بين العقد والروابط". الأولى: التجوال بين العقد من دون غايات مضبوطة، أو هدف لغير التجوال لتمضية الوقت، وإشباع الفضول عبر التحرك داخل عقد النص المترابط. والثانية: هي الإبحار من عقدة إلى أخرى بواسطة الروابط لغاية محددة؛ أي البحث عن أشياء بعينها.

والفكرة المأخوذة أنّ المعجم الورقي بات شديد الفقر قياساً إلى المعجم الرقمي. لكن المجتمعات غير العربية تمتلك قاعدة تحتية معرفية رقمية متعددة الوسائط، أقصت النص الورقي، وحلّت محله حتى بدا كأنه من مخلفات العصور المنسية. أمّا القاعدة المعرفية التحتية بالعربية فهي غائبة وراء السحاب. فالمصطلح يترجم إلى العربية ترجمات مزاجية، فهذا المعجم هو المعجم الذي يستفيد من تقنيات الحاسوب والشابكة، ويعيش قسم كبير من العرب في شبه أمية حاسوبية. ويبدو أنّ العرب لم تول أهمية بعد لبناء صرح معجم حاسوبي صريح. فلا تقدّم للغة إذا لم تحسن استيعاب

الجديد، ومجاراته. والمعجم الحاسوبي انتقال للنص من مرحلة الورقية إلى نص رقمي يسافر في حواسيب الشبكة العنكبوتية، ويمثل عبوراً من مرحلة حضارية إلى أخرى مختلفة عنها. وهذا الأمر متاح للجميع لكنه في القسم الأكبر من الوطن العربي متاح للنخبة فقط.

يمكن أن نقترح البدء بمستوى الجذر، ثم التفرع منه إلى فروع كثيرة مع الأخذ بعين الاعتبار الألف المنقلبة عن واو أو ياء، ورسم الهمزة. ثم مستوى الكلمة، ويتفرع هذا المستوى إلى مستوى نوع الكلمة: "فعل، اسم، مصدر، صفة، أداة..." ومستوى صرفي للكلمة: "نسبة، تصغير، جمع، مفرد، مثنى"، ومستوى النص: "آيات كريمة، أحاديث، أشعار، أقوال، مصطلحات، أمثال..."، فثمة كلمات يصعب على المستعمل^(٦) العادي معرفة جذرها مثل: "مآب، ميناء، تراث...".

ويجب أن يكون هنالك مستوى للبحث عن جزء من الكلمة، فإذا ما وضعنا حرفين أو ثلاثة ظهر أمامنا احتمالات متعددة مع تصريف الأفعال والأسماء والمصادر فيعطي الحاسوب جداول للأفعال مجردة ومزيدة ومسندة إلى الضمائر وفي الأزمنة كلها. أما في الأسماء فيظهر جدول تصريف للأسماء مفردة ومثناة ومذكورة ومؤنثة، نختار منها ما نريد ويفترض وجود أشكال توضيحية مرفقة بأسمائها لزيادة الشرح والتوضيح.

ويفترض هذا الأمر وجود أيقونة تُفعل بنقرة مزدوجة "Double Click"

لتظهر في شاشة كاملة، ويفترض وجود زرّ عودة، وزرّ بحث، وزرّ طباعة، وزرّ حفظ، وآخر للتحكم باللون والخلفية والخط ونوعه. ويجب أن يكون المستعمل على دراية ببرامج الحاسوب؛ لكي لا يضيع في الأزرار، ولكي يعرف كيفية الربط بين المتفرعات عن المصدر، وإذا ما جنحنا بخيالنا وافترضنا أننا أمام عالم رقمي متكامل حلمنا بأن يكون هنالك زرّ يقدم ما يسمّى بالفيديو كليب حول البحث عن كلمة ما. فبدلاً من الشرح المسهب حول كلمة أو تركيب ما يستطيع المستعمل أن يرى تقريراً مصوراً وربما مرفقاً بالموسيقى، والرسوم المتحركة، والألوان؛ لتوضيح هذه الفكرة. فإذا ما رغب مستعمل في معرفة ما تعنيه كلمة عنتره وجد بالإضافة إلى المعلومات السابقة ما يعرفه بالفروسية قديماً، وبأسطورتها "عنتره" في الجاهلية.

يجب أن يحتوي المعجم الحاسوبي عبارات مفتاحية معيّنة، بنقرة عليها نستغني عن صفحات كاملة مكتوبة في الوصف بالمشاهد، واللقطات الحية التي تثري العمل المعجمي الحاسوبي، وتجعله أقرب إلى السينما بشموليتها. فإن رغب المستعمل في معرفة معنى تأميم يمكن أن ينشط عبارة تأميم قناة السويس. وبالضغط على هذه العبارة يحال مباشرة إلى لقطة فيديو لجمال عبد الناصر، وهو يخطب في شعب الإسكندرية يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ في ميدان المنشية.

بالإضافة إلى المعجم الحاسوبي الرقمي المقترح نجد أنّ ثمة فلسفة للتعليم

عبر الشبكات، تعتمد على بنية رقمية إلكترونية، ونظام تفاعلي للتعلّم عن بعد يقدم لطالب تعلّم اللغة العربية التعليم الإلكتروني عبر الشبكات بطريقة تفاعلية، رقمية، ترابطية بدراسة متكاملة تستهدف بناء المقررات، وتوصيلها بواسطة الشبكات الإلكترونية، والإرشاد، والتوجيه، وتنظيم الاختبارات، وإدارة المصادر والعمليات، وتقويمها؛ إذ يتجول طالب معرفة باللغة العربية ذاتياً، ويكون سير التعلّم خطياً، أو تفرعياً حسب ما يراه مصمم المقرر، فيوضّع برنامج تعليمي يربط بالنظام، أو يُنشأ من قبل مدرّس. ويمكن أن نقترح توظيفاً للقصاص الرقمي في تعلّم اللغة العربية؛ إذ شرع جنس أدبي جديد بالظهور على ساحة الأدب العربي هو الأدب الرقمي، وهو الأدب الذي يتخذ من الحاسوب وتقنياته ومن الشبكة وسيلة للوصول إلى المتلقي الذي هو في النهاية مستعمل الحاسوب. فثمة رواية رقمية، وشعر رقمي، وقصص رقمي. فلم لا نوظف القصة الرقمية لشرح فكرة متعلقة باللغة العربية، فتكون تيسيراً وتسهيلاً لعملية توصيل المعلومة؟

إنه تصور ربما يجد صدقاً لدى المهتمين. ولا دافع وراءه إلا الغيرة الشديدة على لغة الضاد، والرغبة في الشعور بأنها ستعود إلى سابق عهدها من القوة، والازدهار، ومواكبة التطور. وثمة فكرة مهمة يجب التوقف عندها في مقام الحديث عن اللغة العربية في علاقتها بالتكنولوجيا هي فكرة النص الفائت. وتقوم على ضرورة التفكير

في صيغة تعليمية جديدة من خلال شبكات الاتصال ؛ إذ يجنب النص الفائق النص الأصلي الحشو والاستطراد، فتوضّح الكلمة المراد شرحها، أو تفسيرها بخط مائل. وبمجرد النقر عليها نُحال إلى نص موازٍ فيه شرح باستخدام وسائط المألتي ميديا "الوسائط المتعددة" التي تجمع بين النص المرئي والصوت والصور الثابتة والمتحركة. ويمكن أن تستخدم نماذج صوتية، أو مقاطع تعليمية.

ويعدّ النص الفائق من أكثر وجوه الجدة في تطوير اللغة الكترونياً. وهو لا يمثل مفهوماً جديداً في طريقة التعليم، ولا يرمي إلى الاستغناء عن المدرّس بل يتمثل في القدرة على توظيف مهارات المدرّسين ؛ لتقديم نص موازٍ للنص التعليمي الأصلي لاسيما ما يتعلق منها بالنصوص التاريخية، والأعمال التوثيقية، والملاحظات، والحواشي. والأهم من ذلك أنه يتجاوز النظام الورقي المكتوب المغلق القائم على مبدأ القراءة التسلسلية الموضوعية من قبل مؤلّف ما، ويحل محله نظام متكامل قائم على جهود فريق عمل تدريسي، وبرمجي بالاستعانة بتقنيات أخر.

يرى حسام الخطيب أنّ مجالات أدب شبكات الاتصال ستكون واسعة ومتعددة... بفضل عوامل مثل تكنولوجيا المعلومات، والقنوات الفضائية، والتدفق الحر للمعلومات، والإخراج المرّفّل Hypermedia والمعاجم الالكترونية وكذلك تجاوز الحدود في مفهومات العولمة الحديثة^(٧).

ويعني الكلام السابق أنّ النص العربي الأصلي بحاجة إلى الإيجاز؛ لأنّ

الحواشي، والتعليقات، والشروح لن تثقله، وسيحافظ على نوعية متميزة. وسيكون النص المقدم عبر النص الفائق المشتمل على النص الأصلي والنص الموازي متقاطعاً مع الأدب الرقمي من جهة أنه علم، وفن. كما يمكن أن نضيف ميزة أخرى تتعلق بهذا المقام هي ميزة الكتاب الناطق الذي يعتمد على إظهار النطق الصحيح للكلمات العربية وحروفها للمتلقي، فيكون كتاباً إلكترونياً صوتياً على غرار الكتاب الناطق لتعليم اللغات الأخرى. ولا يكون الكتاب الناطق لحل الواجبات بل للمساعدة على معرفة الصحيح في بنية الكلمة، وتركيبها. ويقدم على هيئة ملفات الكترونية صغيرة الحجم؛ ليسهل الحصول عليها، والإفادة منها؛ لذا ينبغي تحديث القائمة دائماً.

٧- استشراف المستقبل في ضوء واقع اللغة العربية

كيف يمكن للمهتمين باللغة العربية، والغيورين عليها أن يواجهوا هذه التحديات؟

مما لا شك فيه أننا نحتاج إلى وعي بدور اللغة في حياتنا وعياً حضارياً، وتكثيف الآليات للعمل على وفق هذا الوعي. فلا تتقدم الأمة وهي في حال انبهار بثقافة الآخر؛ لذلك يجب أن نشدد دائماً على التمسك بالهوية، والانفتاح على العالمية، لا العولمة.

يمكننا الوعي بالإرث اللغوي من أخذ ما نريده منه؛ لكي نتخلص من حال العجز أمام ثقافة العولمة. وأبرز مظاهر هذا العجز إعراضنا عن الفصحى، وتشبثنا بلغة الغرب.

ويعدُّ تعريب التعليم الجامعي حماية للغة من المنافسة غير العادلة مع اللغة الأجنبية، ومع العامية. فاللغة الفصحى وعاء الثقافة؛ لذلك يجب علينا زيادة الاهتمام بها، والانتباه إلى أنّ المشكلة ليست في العربية الفصحى، إنها في الناطقين بها. وعلى مجامع اللغة العربية أن تكثّف الجهود لمسايرة التطور العلمي، والتكنولوجي الذي دفع الآخرين لتغليب اللغة الإنكليزية بحجة افتقار العربية إلى مصطلحات مماثلة.

ومن المفيد هنا ذكر تجربة دول الاتحاد الأوروبي، فقد ركزت على اللغة الأمّ، واللغة الأجنبية، وهي لغة يتمّ اختيارها من لغات الاتحاد الأوروبي؛ لكي لا تكون الإنكليزية هي المسيطرة.

ورب سائل يسأل: كيف نوطّد العلاقة بين اللغة العربية، واللغات العالمية؟ وكيف نواجه مشكلات المصطلح، والعامية والفصحى، وانتشار الإنكليزية في عصر العولمة؟

إنّ المقترحات التي تتصدى للمستقبل تشكل وعوداً يهربون من خلالها من مواجهة المشكلة، إذ يجب أن نبدأ من أنفسنا، فنقوّي الرابطة العربية، إننا في أمس الحاجة إلى أمن لغوي مثل الأمن الغذائي، وغيره؛ لنحصن أنفسنا ضد ثقافة العولمة، وفي أمس الحاجة إلى إصلاح تربوي نهضوي شامل يعمّق العلم، والتقنية في البلاد العربية. فحين يفكر العرب بلغتهم، ويدعون بها يختلف الأمر عن الإبداع باللغة الثانية. وهنا تشتد الحاجة إلى قرار سياسي يجعل اللغة العربية لغة العلم، والبحث العلمي، وتشتد الحاجة

إلى الاستفادة من الثورة المعلوماتية، فنتج برامج تعليمية، وثنائية
ميسرة للعربية، ونعرب الحواسيب، ونطبّق المستجدات في مجال الترجمة
الآلية.

إنّ الاستعمال الرسمي لأية مفردة يكسبها السيرورة، ويجعلها راسخة
في الاستعمال اليومي. وسورية من البلدان العربية المبكرة التي التفتت إلى
هذه الناحية. وكانت قد اعتمدت خطة حذا لو أنها بقيت مستمرة، وهي
تعريب أسماء المحال التجارية. فما أجمل أن نرى الأسماء العربية على
واجهاتها!

إنّ الوسيلة التي تخرج الفصحى من غربتها هي الاهتمام بلغة الطفل،
وثقافته، وتغيير مناهج التدريس، وتأهيل المدرّسين بشكل جيّد. ونحن
نطالب بالفصحى لكننا يجب أن نحدّد أية فصحى نريد، هل نريد الفصحى
المحتفظة بظاهرة الإعراب، أو المتخفّفة منها؟!!

وربما استطاع الإنسان قديماً أن يردّد قول الشاعر:

وإنّي وإن كنتُ الأخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ
فقد كان التزاحم قديماً حول الإتيان بما هو متميّز على مستوى
الفصاحة، والبلاغة. أمّا في عصر العولمة فقد تمّ تحول خطير يضع الباحثين
في حيرة من أمرهم. والإنسان الذي يجهل لغته، وأصالتها لا يتكوّن لديه
وعي بمصيرها، والذي يملك المعرفة يحظى بتأثير أقوى من الذي يمتلك
وهم المعرفة.

يجب على جامعة الدول العربية المبادرة لتأليف لجنة تمثل الأقطار العربية، مكوّنة من علماء متخصصين، ودعم المشروع مادياً، ومتابعة ما يستجد من مواد علمية؛ ليتم نقله إلى العربية، وإجراء مسح شامل للمادة التراثية؛ لأخذ المستعمل منها، وترك المهجور، والشاذ، ووضع معجم تطوري للمصطلحات الحديثة مستفيدين من تقنية الحاسوب. وبذلك لا يكون اجتماع هذه اللجان ترفاً فكرياً، ويكون الازدواج اللغوي ازدواجاً إيجابياً؛ لأننا نكون قد تشرّبنا الثقافة الوطنية بالقدر الذي يحول دون ذوباننا في ثقافة الآخر.

كما يجب الاهتمام ببرامج تعليم اللغة العربية على شبكة الأنترنت للأطفال، والمغتربين، والمسلمين من غير العرب، وفرض نوع من الرقابة على المنتجات الثقافية؛ لأنّ اللغة وعاء الثقافة.

وإذا نظرنا إلى المستقبل من هذه الزاوية وجدنا للعولمة جانباً إيجابياً يتمثل في الاستجابة العربية للتطور من خلال تمثل روح النهضة العربية في أواسط القرن التاسع عشر؛ وبذلك تدخل في حال تعددية ثقافية مع الآخر، وفي علاقة تماثلية، لا علاقة غالب ومغلوب. فلا يوجد تناقض بين العولمة، والتعددية الثقافية، والتنوع الحضاري، ويسمح هذا الأمر بإقامة الحوار مع الآخر، وأخذ ما يوافق من ثقافته، وترك ما يخالفها.

مستقبل اللغة العربية ليس مرهوناً بالتحديات الخارجية فقط. إنه متصل بقدرة اللغة على إقامة حوار داخلي بين متكلمي اللغة، وأفكارها؛

ليصبح هذا الحوار شرطاً لأية مبادرة ثقافية للتواصل مع الثقافات الأخرى، ولقبول الآخر وجوداً، وفكراً.

إنّ علينا أن ننشط حركة الترجمة من العربية، وإليها في الإنتاج العلمي، والفكري؛ لنضمن انتشاراً لثقافتنا، ويجب أن نهتم بالدراسات اللغوية المقارنة، ونطلق المزيد من حرية الإبداع، وأفكار المساءلة، والحوار.

إنّ الحديث عن مستقبل اللغة هو حديث عن مستقبل الثقافة، والهوية، والمفروض علينا أن نقابل زحف العولمة بانفتاح حضاري، وعلمي يفيد من إيجابياتها. وكما تحرر العرب من السيطرة الاستعمارية يجب أن تكون اللغة العربية سيادة بلاد العرب.

٨- خاتمة

- اللغة العربية لغة عالمية حية، وقابلة للتطوير والتجدد. وهذه السمة أهم سمات اللغات الحية، وهي قادرة على مجازة هذا العصر شرط وعي الناطقين بها، وبسماتها، وغيرتهم عليها، والعمل على الإفادة من معطيات هذا العصر من أجل تطويرها.

- ركز البحث على أهمية تطوير معاجمنا، وضرورة وضع معجم تاريخي للغة العربية، وربط هذه العملية بالتطور التكنولوجي، ووضع معاجم حاسوبية، وتطوير عمل الصناعة المعجمية.

- أثبت البحث في مقام الحديث عن تجربة وضع المصطلح أنّ ثمة غياباً من

جهة التنسيق بين الجهات المعنية بوضع المصطلحات ؛ إذ يجب أن تتوحد الجهود على المستويات كافة -تعليمية وإعلامية- بقرار سياسي ، كما يجب أن تلغى الجهود الفردية ، وأن يتم إنشاء بنك مصطلحات عربي موحد ؛ تلافياً للتخبط الشديد في الترجمة.

- أما التعريب فقد أثبت البحث أننا في حاجة إلى تعريب العربي قبل تعريب المصطلح والمفردات ، وذلك بالابتعاد عن ثقافة العولمة القائمة على أساس مركزية الثقافة الواحدة ، وإزاحة الآخر ، أو ما يُسمى بالاستلاب الثقافي.

- يشعر العربي أمام اللغة الإنكليزية بالانبهار ، والدونية. وقد أثبت البحث محدودية فكر من يعتمد على لغة أخرى غير لغته للتعلم ، والتفكير. كما نبّه على المخاطر التي تنجم عن تبني ثقافة اللغة البديلة التي تدخل في علاقة ضدية مع الخصوصية الثقافية.

- وجد البحث أنّ التعليم الإلكتروني وسيلة التعلم في المستقبل لأسباب فصل القول فيها ، ووجد أنّ أفضل وسيلة الكترونية هي ما يمكن أن نطلق عليه التعليم الرقمي الذي يستفيد من تقنيات الحاسوب والشابكة لاسيما أنّ خصائص اللغة العربية يمكن استثمارها حاسوبياً ، كما يمكن برمجتها آلياً ؛ نظراً لتعدد السمات التي تميزها من باقي اللغات.

- اقترح البحث إنشاء معاجم حاسوبية رقمية انطلاقاً من علم المعاجم الحاسوبية مثل إيجاد معاجم للناطقين بالعربية ، ومعاجم مصطلحات

علمية، ومعاجم مفهومة؛ لذا يجب التركيز على اللغويات الحاسوبية في المناهج الجامعية.

- وجه البحث إلى ضرورة الإفادة من تقنيات العصر التكنولوجي في تعلم اللغة العربية، كالتعلم بالطريقة التواصلية، والتعلم عبر البريد الإلكتروني.. ويمكن أن نرى أنّ التعليم الرقمي هو الوسيلة الأجدى حداً؛ لأنه الوسيلة الوحيدة لمجارات روح العصر، ومسايرته بدلاً من أن يسبقنا، ويخلفنا وراءه!

وأخيراً ومن حبنا هذه اللغة الحية، وحرصنا عليها نردّد مع الشاعر مترمين:

فتضوّعت عبقاً على الأكوان	لغةً حباها الله حرفاً خالداً
وتسيلُ شهداً في فم الأزمانِ	وتالألآت بالضادِ تشمخُ عزةً
	ومع الشاعر الآخر هاتفين:
كانت لنا برداً على الأكبادِ	لغةً إذا وقعت على أسماعنا
فهي الرجاءُ لناطقٌ بالضادِ	ستظلُّ رابطةً تؤلّف بيننا

الهوامش:

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة البعث، حمص، سورية.

(١) Nimat Hafez Barazangi, Muhammad Mrayati, Marwan Al-Bawab, Ghayada Rebdawi, M.Hassan Al-Tayyan, Arabic language learning: A module of a Research- Based computerized curriculum.

- (٢) انظر: ندوة اللغة العربية والتعليم، أقامها مجمع اللغة العربية بدمشق، بالتعاون مع وزارة التعليم العالي ووزارة التربية ٢٢-٢٥ تشرين الأول ٢٠٠٠ بحث الحاسوب وتعليم العربية لغير المختصين بها بالطريقة التواصلية، ص ٢٨٨.
- (٣) الحاسوب وتعليم العربية لغير المختصين بها بالطريقة التواصلية، ص ٢٩١.
- (٤) Microsoft Corporation, Teach Teacher Technology. A statically report published on line available <http://www.microsoft.com>
- (٥) انظر ما يقارب هذا العمل في: البواب: أ. مروان: ٢٠٠٧، نحو معجم حاسوبي للغة العربية، مجلة التعريب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد ٣٣، ص ٦٠.
- (٦) نستخدم مصطلح المستعمل بدلاً من القارئ لأنّ القارئ المفترض يتعامل مع شاشة الحاسوب، والشابكة. وهنا ينتفي فعل القراءة فقط.
- (٧) الخطيب، حسام: ١٩٩٩، ملامح الأدبية العالمية في عصر الاتصال والعولمة، مجلة علامات، جدة، ج ٣، ديسمبر.

ملف العرو

الأستاذ الدكتور عبدالله الصالح العثيمين

مقدمة المؤلف

فقدت الساحة الثقافية والفكرية في المملكة العربية السعودية أحد الأساتذة الفاعلين فيها حضوراً وتأليفاً وإبداعاً هو سعادة الأستاذ الدكتور عبدالله بن صالح العثيمين، عضو هيئة التحرير لهذه المجلة، الذي انتقل إلى رحمة الله بتاريخ ١٢ رجب ١٤٣٧هـ الموافق ١٩ إبريل ٢٠١٦م. وقد رأت هيئة التحرير أفراد ملف عنه في هذا العدد يتناول سيرته الذاتية وبعض ما كُتب عنه في حفلات تكريمه أو تأبينه، راجين أن يتغمده الله بواسع رحمته، وأن يسكنه فراديس الجنان، و«إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

د. أحمد بن محمد الضبيب

السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور عبد الله الصالح العثيمين - رحمه الله -

١ - حياته الدراسية :

- ولد في عنيزة - القصيم ، المملكة العربية السعودية ، وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة في مسقط رأسه ، ثم التحق بالتعليم الحكومي سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م .
- نال شهادة المعهد العلمي الديني في عنيزة سنة ١٣٧٧هـ ، ثم شهادة المعهد العلمي السعودي في مكة سنة ١٣٧٨هـ .
- تخرّج من قسم التاريخ في جامعة الملك سعود بالرياض سنة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .
- نال شهادة الدكتوراه من جامعة أدنبرا - اسكتلندا - سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م . وكانت أطروحته لتلك الشهادة عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؛ دراسة لحياته ، وتحليلاً لإنتاجه العلمي ، وإيضاحاً لعقيدته وأفكاره ؛ وآراء معارضية .

٢- حياته العلمية العملية :

- أصبح -بعد نيله الدكتوراه- عضو هيئة تدريس في قسم التاريخ بجامعة الملك سعود حيث ترقى إلى درجة أستاذ عام ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م. وقد أمضى في التدريس الجامعي ثمانية وعشرين عاماً.
- كان رئيساً لقسم التاريخ لمدة سنتين، وعضواً في مجلس كلية الآداب ثلاث سنوات، وعضواً في المجلس العلمي لجامعة الملك سعود؛ ممثلاً لهذه الكلية، لمدة أربع سنوات.
- كان عضواً في اللجنة الاستشارية لوزير التعليم العالي لأربع سنوات، ثم مستشاراً في وزارة المعارف للتطوير التربوي عدة سنوات، وهو عضو في مجلس أمناء مركز حمد الجاسر الثقافي.
- كان عضواً في مجلس الشورى من عام ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م إلى عام ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- وهو عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضو هيئة تحرير مجلة الدارة، التي تصدرها دارة الملك عبد العزيز في الرياض، وعضو هيئة تحرير مجلة رسالة الخليج، التي يصدرها مكتب التربية لدول الخليج العربية، وعضو هيئة تحرير مجلة العرب، التي تصدر عن دار اليمامة في الرياض، وكان عضو هيئة تحرير حوليات كلية الآداب، التي تصدرها جامعة الكويت، لمدة سنتين.
- منذ عام ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م وهو الأمين العام لجائزة الملك فيصل العالمية.

- ألقى محاضرات عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتاريخ المملكة العربية السعودية في جامعات عديدة باللغتين العربية والإنجليزية، بينها جامعتا درم وأكسفورد في بريطانيا، وجامعات بولونيا ونابولي وباليرمو في إيطاليا، وجامعات أريزونا وجورج تاون وهارفرد في أمريكا.
- شارك في عدة مؤتمرات وندوات وطنية وإقليمية وعالمية، كما قدّم أمسيات شعرية، أو شارك فيها، داخل الوطن وخارجه.
- نال جائزة الأمير سلمان بن عبد العزيز التقديرية للرواد في تاريخ الجزيرة العربية عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. وهذه أول مرة تمنح فيها الجائزة.

٣- إنتاجه العلمي:

صدر له من الكتب في مجال تاريخ المملكة ما يأتي:
أ- تأليفاً:

- أنت يا فيحاء ملهمتي، عنيزة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- تأملات في التاريخ والفكر، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- تاريخ المملكة العربية السعودية، ويتكون من جزأين، صدرت الطبعة السادسة عشرة من الأول والثامنة من الثاني عام ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

- خواطر حول الوطن والمواطنة، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- عن الوطن وإليه، نادي القصيم الأدبي، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- مراجعات في مصادر التاريخ السعودي، الرياض، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد، الطبعة الثالثة، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- من وحي رحلات إلى خارج الوطن، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- نجد قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- نشأة إمارة آل رشيد، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

ب- ترجمة :

- بعثة إلى نجد، تأليف سانت جون فيلبي، الرياض، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- توحيد المملكة العربية السعودية، تأليف: محمد المانع، الطبعة الثالثة، الدمام، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- من حديث بوركهارت عن الخيل والإبل العربية، ترجمة لأجزاء من كتاب بوركهارت ملحوظات عن البدو والوهابين، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة لما ورد في الجزء الثاني من كتاب بوركهارت بهذا العنوان، ملحوظات عن البدو والوهابين، الطبعة الثالثة، الرياض، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

ج- دراسةً وتحقيقاً :

- كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، لمؤلف مجهول، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، لحسن الريكي، الرياض، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- نبذة تاريخية عن نجد، أملاها ضاري الرشيد على وديع البستاني، الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

د- كتب عن قضايا الأمة :

- خواطر حول القضية، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
 - كتابات عن التصهين، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
 - مقالات عن الهمّ العربي، دمشق، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
 - أنت في مقالات عن فلسطين والعراق وقضايا مصيرية، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
 - مقالات عن قضايا عربية، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
 - عام من الذل والانخداع، دمشق، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
 - بيع الأوطان بالمزاد العلني، دمشق، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- هـ- شعراً :

بالعربية الفصحى :

- بوح الشباب، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- دمشق وقصائد أخرى، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- صدى البهجة، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- عرس الشهباء وقصائد أخرى، بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- عودة الغائب، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- في زفاف العروس، بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- لا تلوموه إذا غضبا، بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- لا تسلمي، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- مشاعر في زمن الوهج، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

باللهجة النجدية العامية :

- نمونة قصيد، الرياض ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- إضافة إلى ذلك ألف الكتب الآتية المقررة في التعليم العامّ:
- تاريخ المملكة العربية السعودية، للسنة السادسة الابتدائية.
- السيرة النبوية والخلفاء الراشدون، للسنة الأولى المتوسطة.
- جوانب من التاريخ الإسلامي، للسنة الثالثة المتوسطة.
- تاريخ المملكة العربية السعودية، للسنة الثالثة الثانوية.

عبد الله العثيمين: البحث عن الحق والحقيقة

بقلم: د. أحمد بن محمد الضبيبي ❖

الأستاذ الدكتور عبد الله العثيمين هو أحد وجوه مجتمعا الثقافي التي تتصف بالإشراق والصفاء والشفافية من جهة، والعمق والتمكن العلمي من جهة أخرى، فإذا جلست إليه غمرتك عفويته وطلاقة محيآه، وبهرك حديثه العميق، سواء أكان ذلك في التاريخ أو الأدب أو السياسة أو الاجتماع أو غير ذلك من الفنون والعلوم التي يخوض فيه باقتدار ودون تكلف.

وهو شاعرٌ من رواد شعرنا المعاصر، وقد أصدر -فيما أعلم- أكثر من خمسة دواوين. والقارئ لشعره يرى أنه يتجه في معظمه نحو أحداث الوطن وهموم الأمتين العربية والإسلامية، التي تورقه منذ بدايات تفتحه الأدبي.

وهو إلى جانب ذلك كاتبٌ ثريٌ متدققٌ، تظهر مقالاته أسبوعياً في جريدة "الجزيرة" لتلامس شؤون السياسة والاجتماع في هذه الحقبة المضطربة من حقب تاريخنا المعاصر. وكلما ازدادت الكوارث والصدمات

في حياة هذه الأمة واكب العثيمين ذلك شعراً ونثراً، وقد يمزج بين الشعر والنثر فيشير في كثير من مقالاته إلى ما كتبه شعراً في هذا الموضوع أو ذاك. وهو يتخذ في ذلك كله موقفاً ثابتاً لا يتحوّل عنه ولا يتزحزح، هو البحث عن الحقّ العربي، والإصرار على الدفاع عن الهوية في دوائرها المتعدّدة: وطنيةً كانت أم عربية أم إسلامية، ويقوم موقفه على الرصد والتحليل والمقارنة واستخلاص العبر والعظات، علّ قومه أن يجذروا أو يفيقوا ممّا هم فيه.

والشواهد على مواقف هذا المجاهد الفكري كثيرة، ويمكن أن نأخذ أمثلةً من كتابه "كتابات عن التّصهين" الذي صدر في بيروت سنة ١٤٢٦هـ. يضمُّ الكتاب ثمانية مباحث وخاتمة، تركّز - كما يقول المؤلف - «على تاريخ التّصهين المسيحي في قارّتي أوروبا وأمريكا، وما قدّمه المتصهينون في هاتين القارّتين من خدمات جليلة للصهاينة من اليهود».

في المقدمة يستعرض الكاتب حركة التّصهين المسيحي في أوروبا وأمريكا بوصفها مرتبطة بالعقيدة المسيحية البروتستانتية منذ القرن السادس عشر الميلادي، ويتتبع - بإيجازٍ وتركيز - الجهود المبذولة من قبل رجال دين ومفكرين ورجال اقتصاد، إلى جانب قادة وسياسيين، كان لهم قصب السبق في تحقيق الحلم الصهيوني منذ ذلك الوقت حتى قيام دولة الكيان المغتصب على أرض فلسطين.

ثمّ يقدم المؤلف قراءاتٍ لأربعة كتب وثلاث مقالات تتحدّث عن خلفيات

الصهيونية الأوروبية وأمريكية في هاتين القارتين. أولها كتاب "حق التّضحية بالآخر: أمريكا والإبادة الجماعية"، الذي ألفه منير العكش، وقد استعرض فيه حروب الإبادة الجماعية التي شنّها المستوطنون الأوروبيون على سكّان البلاد الأصليين، وما ارتكبَ فيها من فظائع، وما استُخدمَ فيها من وسائل مدمّرة وحشية بذرائع دينية تجعل من أمريكا (أرض الميعاد)، وهي الفظائع نفسها التي يرتكبها الصّهائنة في أرض فلسطين بـحُجج دينية تجعل قتل الآخر غير الصهيوني حلالاً مُستحبّاً.

والقراءة الثانية لكتاب "الصهيونية المسيحية" لمحمّد السماك، الذي يوضّح فيه المؤلّف الصلّة بين العقيدة المسيحية حول عودة المسيح إلى أرض فلسطين وضرورة التجمّع فيها، وبين الحركة الصهيونية التي تعمل على إقامة كيان للصّهائنة على أرض فلسطين. ويتتبّع نشاط الحركة الصهيونية للوصول إلى أهدافها، وكيف تنامت المشاعر الصهيونية داخل أمريكا. ثمّ يتحدّث عن الصهيونية المسيحية والإسلام، وكيف تسلّل الفكر اليهودي إلى بعض الطوائف الإسلامية، والدعاوى القومية، والنّيل من الإسلام عقيدةً وحضارةً.

كما ذكرَ المؤلّف مُخالفة قيام الكيان الصهيوني لنصوص القانون الدولي، ودأب هذا الكيان منذ إنشائه على ذلك. واستعرضَ المؤسّسات الصهيونية الفاعلة في حشد الرأى والمال واللوبي السياسي من أجل المشروع الصهيوني.

ولعلَّ من أبرز ما جاء في آخر الكتاب نُشر المؤلف رسالة الملك عبد العزيز إلى الرئيس روزفلت سنة ١٩٤٥م حول الحقَّ العربي في فلسطين، وكوّن قيام الكيان الصهيوني يقضي على الكيان العربي ويهدّد السلم باستمرار، وردَّ الرئيس الأمريكي بأنّه «لن يتّخذ أيّ عمل يتّضح أنّه عدائي للشعب العربي»، ويعلّق العثيمين على ذلك قائلاً: «أمّا ما حدث فعلاً من كل القيادات الأمريكية منذ ذلك التاريخ فيتّضح لكل متابع أنّه عدائي كل العداء للشعب العربي، وبخاصّة في قضيتته الأولى قضية فلسطين، والعامل من اتّعظ بدروس التاريخ».

والكتاب الثالث الذي يعرض له الدكتور العثيمين في كتابه هو كتاب "جرائم الحرب الأمريكية في الخليج" لمؤلفه رمزي كلارك، وهو يتحدّث عن تخطيط أمريكا للسيطرة على الخليج، وكيف أنّ العراق كان هدفاً لأمريكا منذ قيام الثورة سنة ١٩٥٨م، وكيف وقفت أمريكا مع صدام عند حربه ضدّ الإيرانيين، ولم تُمانع غزوه الكويت قبل حدوثه، وكيف بذلت ما في وسعها لإفشال أيّ حل عربي لانسحاب الجيش العراقي من الكويت، ثمّ اندفاعها إلى حرب العراق.

وتتوالى فصول الكتاب إلى الفصل الثامن الذي عنونه المؤلف بـ "خرق ميثاق الأمم المتحدة والدستور الأمريكي"، تحدّث فيه عن تحكّم أمريكا بمجلس الأمن، وإملائها عليه ما تريد.

ويُنهي الدكتور العثيمين استعراضه لهذا الفصل بقوله: «وما ذكره المؤلف عن تحكّم أمريكا بمجلس الأمن أمرٌ يُدرّكه كل دارس لتاريخ هذا المجلس... وقد قلتُ في قصيدةٍ عنوائها "الشجن المر"، وفيها:

تملك الدنيا وتحكّمها بعصا الإذلالِ والدخنِ
دولةٌ من كيدها ملئت جنباتُ الأرض بالمحَنِ
مجلسُ الأمن الذي زعموا كيفما شاءت له يَكُنِ
وأمينٌ من صنائعها نَصَبَتْهُ غيرُ مؤتمِنِ»

هذا الكتاب وأمثاله يهدف إلى التوعية، والإفادة من التاريخ، ووضع الحقائق أمام الدارس والمتابع ومتخذ القرار لاتخاذ المواقف المناسبة لما يُستقبل من الزمان، وأحسب أنّ العثيمين كان يهدف إلى ذلك في كل ما كتبه مما يتعلّق بالأوضاع السياسية المعاصرة.

إنّ هذا الموضوع -بكل أبعاده- ليس بعيداً عن التخصص الرئيس للعثيمين، وهو التاريخ؛ فهو الباحث والأكاديمي الذي انصرف بكامل طاقاته العلمية لتأريخ الدولة السعودية بمراحلها الثلاث المعروفة، حتّى أصبح مرجعاً وحجّةً في هذا التاريخ. ومن جليل أعماله في هذا المجال:

- تاريخ المملكة العربية السعودية (جزآن).
- بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية.
- الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره.
- العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت.

- قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد.
- قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن.
- محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية.
- معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد.
- حول تاريخ الوطن.

هذه الأعمال التي قدّمها العثيمين أعمالاً أصيلة تبحث عن الحقيقة التاريخية بجدية ويقظة، وهي قد لا تسير مع السائد وإنما تفتش بعمق عن الظروف والملايسات التي تكتنف الأحداث، وتستخلص منها النتائج. لم يقتصر جهد العثيمين في هذا المجال على البحث التاريخي الذي كتب فيه عدداً من المؤلفات والبحوث، بل عمل أيضاً على تحقيق المصادر القديمة التي تناولت تاريخ الوطن، وقدّمها بحلّة قشبية. وكذلك ترجم ما كتبه بعض الرحّالة والمستشرقين الذين زاروا بلدنا أو كتبوا عنه عن بُعد.

فمن الكتب التي أسهم العثيمين في تحقيقها كتاب "كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهّاب" لمؤلف مجهول؛ وكتاب "نبذة تاريخية عن نجد أملاها ضاري الرشيد وكتبها وديع البستاني"، وكتاب "لمع الشّهاب في سيرة محمد بن عبد الوهّاب" لحسن الريكي.

والكتاب الأخير سبق أن حُقّق قبل ذلك مرتين، إحداهما خارج المملكة، والثانية في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، لكن نُشِرة الدكتور العثيمين التي صدرت سنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م امتازت بإيراد الكتاب كما كتبه مؤلفه

وتصحيح أخطائه في الهوامش ، وتَفَادِي ما وقع فيه المحققان السابقان من هَنَات ، مع تصديره بدراسة وافية عن المؤلف والكتاب.

أمَّا الترجمات التي شارك بها الدكتور العثيمين في مجال تاريخ البلاد العربية السعودية فهي حسب علمي :

- "بعثة إلى نجد" لفَلْبِي.

- "توحيد المملكة العربية السعودية" لمحمَّد المانع.

- "من حديث بوركهارت عن الخيل والإبل العربية".

- "مواد لتاريخ الوهايين" لبوركهارت.

- "تاريخ الوهايين وحياة العرب الاجتماعية" لأندرو كرايتون.

وهذه كلُّها أعمالٌ جلييلةٌ تُلقِي إضاءاتٍ ساطعةً على تاريخ بلادنا من وجهة نظرٍ أخرى ، وهي تُضاف إلى جهود العثيمين المتعدِّدة التي أشرتُ إليها آنفًا.

إنَّ تكريم العلامة الدكتور عبدالله العثيمين يُبهج الباحثين عن الحقيقة ، ويجعلهم أكثر إصرارًا على السَّير في طريق الحقِّ والخير ، إذ هو رمزٌ من رموزنا العلمية والثقافية المُقدَّرة التي تستحقُّ كلَّ تكريمٍ وإعزاز.

❖ رئيس التحرير.

العثيمين مؤرخ أصيل وأستاذ جيل

بقلم: د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي ❖

هذه كلمة شاركت بها في جلسة تأبين في "مجلس حمد الجاسر"^(١) خصصت لأخينا وحبينا عبدالله بن صالح العثيمين الذي انتقل إلى جوار ربه يوم الثلاثاء ١٢ رجب ١٤٣٧ هـ (١٩/٤/٢٠١٦ م) رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه فسيح الجنان، والغفران والرحمة لصاحب هذه الدار شيخنا حمد الجاسر.

نلتقي في هذا الصباح المبارك لتذاكر شيئاً من مآثر فقيدنا الغالي عملاً بقول الرسول ﷺ: "اذكروا محاسن موتاكم"، ويشرفني أن أشارك على هذه المنصة علمين عالمين تميزا بخصال كثيرة أهمها النبل والوفاء هما مدير هذا اللقاء الدكتور عبدالرحمن الشبيلي وزميلي الدكتور محمد الهدلق.

سأبدأ بذكر طرف من العلاقة بيني وبين عبدالله العثيمين، رحمه الله. تشرفت بمزاملة الدكتور عبدالله أثناء ابتعائنا لبريطانيا، فكلانا كنا ندرس بجامعتين في مدينتين باسكتلندا هما إدنبرا وسينت أندروس، ويفصل بينهما قرابة المئة كيل. وبما أنّ إدنبرا هي عاصمة اسكتلندا مدينة كبيرة

وجميلة ونحن في مدينة سانت أندروز الصغيرة فكنا كثيراً ما نحلّ ضيوفاً عليه وعلى زملائه بإجازات الأسبوع ونسعد بصحبتهم الجميلة والتي نستمتع بذكرياتها الطيبة التي لا تنسى. ثم تشرفت بمزاملته بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود بعد ذلك لمدة ناهزت الثلاثين عاماً فأفدت - كما أفاد غيري من زملائي - ولكنني أظن أنني حظيت بقدر طيب من علمه الجَمِّ وحكمته وسداد رأيه وسعة أفقه وجلمه وسماحته وطيب معشره؛ لأنني لازمته وخالطته أكثر من غيري. فالمرء يتشوّق إلى جلسته لما فيها من ظُرف وتشويق وحسن حديث فإن تحدّث في التاريخ فهو المبرز فيه، وإن تحدّث في الشأن العامّ فهو المهموم به العارف لأبعاده، وإن تحدّث في شؤون الأُمَّة فهو المستوعب المتابع لأحوالها، وإن كان حديث ظُرف فهو يتجلّى مرحاً وأنساً ودعابة.

عبدالله العثيمين تولى منذ تعيينه أستاذاً بالجامعة، بعد إنجازه رسالته للدكتوراه بجامعة إدنبرة، تدريس تاريخ المملكة العربية السعودية بقسم التاريخ مع زميلنا طيب الذكر الأستاذ الدكتور محمد بن سعيد الشعفي، أمده الله بالصحة، ثم تولى رئاسة قسم التاريخ، ونظراً لتميّزه فقد تم اختياره عضواً بالمجلس العلمي بالجامعة لعدد من السنوات.

شارك في وضع المناهج والخطط الدراسية في القسم والكلية، كما أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وباختصار فهو أستاذ جيل.

رغم أنّ الدكتور عبدالله العثيمين كان، بحكم خبرته وعلمه وسداد رأيه، مرجعاً لكثير من المؤسسات العلمية والجهات المعنية بإدارة المجتمع يستشيرونه في أمور كثيرة أو يطلبون منه تقديم دراسات عنها، إلا أنّ كل ذلك لم يجل دون كونه باحثاً نشيطاً دؤوباً أثمر إنتاجاً علمياً يتصف بالغزارة والعمق. والحجر الأساس في بنائه البحثي يتمثل في رسالته للدكتوراه، وعنوانها: "الشيخ محمد بن عبدالوهاب - حياته وفكره"^(٢). إنّ اختيار مثل هذا الموضوع لدراسته في جامعة أدنبره على يدي ألمع المستشرقين في عصره مونتجمري وات (d.٢٠٠٦) Montgomery Watt يدل على شجاعة إن لم نقل على تهوّر. لماذا؟ لأنّ الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله، كتب عنه أنصاره عشرات الكتب وكتب عنه خصومه ربما أكثر مما كتب عنه أنصاره على المستوى المحلي والإقليمي والعالم الإسلامي، كما كتب عنه الكثير من المستشرقين بلغاتهم المختلفة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، من يكتب عن الشيخ محمد ابن عبدالوهاب لا بد أن يدرس ويستوعب كتبه في العقيدة (التوحيد) والفقه ومراسلاته وفتاواه، بل عليه أن يدرس كتب أسلافه من العلماء سواء القرييين زمنًا منه أم البعيدين زمنًا مثل ابن تيمية، ليلحظ مدى التواصل الفكري والعلمي بينه وبينهم، وهل كان يتسق معهم في كل الأحوال أم كان يفارقهم في بعض الأحيان. وكان عليه أن يدرس أوضاع مجتمع المنطقة التي نشأ فيها الشيخ محمد بكل أبعاده ليفهم تأثيرها على تكوين الشيخ العلمي والاجتماعي وعلى مواقف أمراء البلدان، وطلاب

العلم فيها والعامّة من دعوة الشيخ. ويدرس الناحية العملية لدعوة الشيخ، بجانب ما أودعه مؤلفاته نظرياً، وذلك من خلال الأساليب التي سلكتها الدولة السعودية الأولى إمّا مباشرة أو بتوجيه من الشيخ في حياته. إنّ كلّ ذلك جملٌ ثقيلٌ على طالب تاريخ ولكن عبدالله العثيمين لم يكن هيّاباً ولا متقاعساً، ونجح في كتابة رسالة متميّزة وفق منهج علمي نقدي صارم. وبعد نشره لرسالته في كتاب أتم ذلك بنشره دراسته لبعض مصادرها وخاصة تاريخ حسين بن غنام (ت ١٢٢٥هـ) أول مؤرخ للدولة السعودية، وكتابات الرحالة المعاصرين لها أو القريبين نسبياً من عصرها ثم كتابات المستشرقين، وحملت عنوان: "مراجعات في مصادر التاريخ السعودي"^(٣).

ومن خلال تتبّع العثيمين ورصده لتاريخ نجد أثمر ذلك كتيباً صغير الحجم كبير الفائدة عنوانه: "نجد قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب"^(٤). عبدالله العثيمين ليس باحثاً فحسب بل هو صاحب رسالة، لا يكتب أبحاثاً للنخبة الأكاديمية بل غايته أن يتواصل مع طلاب العلم والناس على مختلف مستوياتهم وأن يُقرب ما يكتب إلى القارئ حسب مستواه، فقد كتب لطلاب المرحلة الابتدائية ولطلاب المرحلة الثانوية راعى فيها مستوياتهم فقرب إليهم المعلومة التاريخية بأسلوب سلس شيق محبب، وانتقل بعد ذلك للكتابة للطلاب الجامعي ولأبيّ قارئ متوسط الثقافة فألف كتاباً من جزأين عنوانه: "تاريخ المملكة العربية السعودية"^(٥) خصص

الجزء الأول لتاريخ الدولتين السعودية الأولى والثانية، والجزء الثاني: تاريخ المملكة العربية السعودية، بدءاً من تأسيسها وحتى وفاة الملك عبدالعزيز، رحمه الله، ودرسها من حيث التأسيس والتوحيد والتطور في جميع المجالات. ولا أدل على نجاحه في رسالته أنّ كتابه عن تاريخ الدولة السعودية طبع ستّ عشرة طبعة، ولا أظنّ كتاباً بالمملكة العربية السعودية حظي بمثل تكرار هذه الطبعات.

وللتاريخ العسكري نصيب طيّب من أبحاث المؤرخ العثيمين، فقد كتب دراسة قيّمة عنوانها: "في التاريخ العسكري للدولتين السعوديتين الأولى والثانية"، على أنه خص "معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد"^(٦) بكتاب أبدع فيه من جميع النواحي، وتتبع تسلسل إنجازات الملك عبدالعزيز، رحمه الله، العسكرية منذ أولى معاركه التي استولى فيها على الرياض سنة ١٣١٩هـ وحتى آخر حروبه التي كانت على جبهة اليمن ما بين سنتي ١٣٥٢-١٣٥٣هـ من حيث التخطيط الاستراتيجي والتكتيك الحربي واختياره التوقيت والمكان وسياساته في اختيار القادة وفي استقطاب المحاربين ورعايتهم، وشهامته ومروءته في إكرام خصومه المهزومين قادةً وأفراداً، وتألّفه لهم بحيث يتحوّلون إلى أشد الناس حباً وإخلاصاً له، كل ذلك انعكس في هذا الكتاب مادةً وأسلوباً وعرضاً ومنهجاً، وزوده بخرائط ملوّنة ودقيقة لكل معركة. وخفّف فيه كثيراً من جفاف المنهج الأكاديمي بحيث أصبحت قراءته سلسلة وشيقة.

وامتداداً لدراساته تلك توسّع من الناحية الجغرافية والموضوعية فألّف كتاباً عن "نشأة إمارة آل رشيد"^(٧) والتي أصل نشأتها تعود لتعيين الإمام فيصل بن تركي أحد قواده عبدالله بن علي بن رشيد أميراً على جبل شمرّ أواخر سنة ١٢٥٠هـ والذي أخذت سلطته تنمو حتى صارت الإمارة لاحقاً مستقلة ثم منافسة للدولة السعودية، ومرّت إمارة آل رشيد بفترات صعود وهبوط حتى صارت نهايتها على يدي الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود بدخول حایل ضمن منظومة المملكة العربية السعودية سنة ١٣٤٠هـ.

دراسة الدكتور عبدالله العثيمين هذه تعدّ رائدة من حيث منهجُه ومصادره وتحليلاته، فقد اعتمد على الروايات الشفهية لكثير من الرواة ذوي العلاقة المباشرة أو القريبة من الأحداث كما وظّف نصوصَ الشّعْر الشعبي بصفتها وثيقة تاريخية، وهو أول من قام بذلك، فيما أعلم، بحيث أثرتُ بحثّه. أمّا تحليلاته فتتّصف بالعمق وفهم خلفيات الأحداث وبيئاتها ومسبباتها وتحريه الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا غرو في ذلك فقد حصل هذا الكتاب على جائزة مجلس التعاون لدول الخليج العربية في أولى دوراتها كأفضل كتاب ألف في دول الخليج في العلوم الاجتماعية (في حقل التاريخ) عند صدوره.

لم يتوقّف العثيمين عند هذا الكتاب وإنما أخذ يتابع ما ينشر من أبحاث عن نفس الموضوع سواء كانت دراسات شاملة عن إمارة آل رشيد أو تناولت جانباً منها، وكان أهمها ثلاثة كتب، كتب عنها العثيمين دراسات

نقدية اتسمت بالثراء والموضوعية وشكلت هذه الدراسات الثلاث كتاباً بعنوان: "قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد"^(٨).

كان العثيمين مهذباً ، متواضعاً في نقده فلا يظهر استعلاء على من ينتقد أو تسفيهاً له ، أو تضخيماً لما في العمل المنقود من قصور أو أخطاء ، أقل مثلاً واحداً. ففي نقده لكتاب الدكتور محمد الثنيان: "عبدالعزیز بن رشيد والحماية البريطانية"، ص ١٣٧ يقول: "ودراسة أخي وزميلي الدكتور محمد الثنيان، جديدة في استقصاء تفاصيل موضوعها، جيدة في توثيقها، حسنة في أسلوبها، وكل هذه الصفات ليست غريبة على كتابة باحث مثله، وهي ما تجعل لما يكتبه قيمة واضحة لدى المهتمين بالدراسات التاريخية الحديثة عن هذا البلاد.

وما سأقوم به في هذه القراءة لكتابه مزيج بين إثارة التساؤلات إضافة إلى التساؤلات التي أثارها في دراسته، وإبداء وجهة نظر قابلة للنقاش، وإعطاء معلومات إضافية قد تزيد من إيضاح بعض المسائل". لكنه لا يدهن ولا يجامل في نقده من قول ما يراه الحق ولكن بأسلوب مهذب.

العثيمين المحقق:

لم يكن عبدالله العثيمين باحثاً في التاريخ فحسب بل محققاً يمتلك كل أدوات التحقيق من حيث منهج التحقيق النقدي، وتمكّنه من اللغة العربية تمكناً يتفوق فيه على كثير من أصحاب الاختصاص، وقدرته على قراءة الخطوط القديمة فيجمع نُسَخَ مخطوط الكتاب الذي يشتغل على تحقيقه ويقرأ نصوصه بعناية وأناة، سعياً منه ليخرج النص كما كتبه مؤلفه. وهو

انتقائي في تحقيقاته، فالأصل عنده أن يكون الكتاب الذي يقدم على تحقيقه ذا قيمة علمية تضيف إلى موضوعه إضافات هامة. وسوف أكتفي بالإشارة إلى عنوانات تحقيقاته وأولها كتاب "كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب"^(٩)، والثاني كتاب "نبذة تاريخية عن نجد"^(١٠) أملاها ضاري بن فهد الرشيد، وكان أول من حققه أستاذ الجميع حمد الجاسر، رحمه الله^(١١)، ولكن العثيمين حققه على المخطوط وأضاف إليه تعليقات وشروحات، والثالث "لَمَع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب"^(١٢)، وقد سبق نشر هذا الكتاب مرتين، مرة في خارج المملكة وأخرى في داخلها، على أن الكتاب مجهول المؤلف، ومضمون الكتاب مخالف لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب متحامل عليها، لكن العثيمين قام بتحقيقه تحقيقاً علمياً وردَّ على مؤلفه في ما أخطأ فيه متعمداً أو غير متعمداً، وأما اللثام عن اسم مؤلفه وهو حسن بن جمال بن أحمد الريكي الذي فرغ من تأليفه سنة ١٢٣٣هـ، وهي السنة التي سقطت فيها الدولة السعودية الأولى على يدي القائد إبراهيم باشا.

العثيمين المترجم:

البعث الثالث في أعمال العثيمين التاريخية هو الترجمة، فلقد ترجم عن اللغة الإنجليزية القسم الخاص بالدولة السعودية الأولى من كتاب الرحالة السويسري يوهان لودفيك بوركهارت "البدو والوهابيون" بعنوان "مواد لتاريخ الوهابيين"^(١٣)، وكان هذا المؤلف من أكثر الرحالة الأوربيين الذين قدموا إلى البلاد العربية دقة وحرية للمعلومة الصحيحة. وكونه منذ بداية

القرن التاسع عشر في بلاد الشام ويتتبع أخبار الدولة السعودية ثم محيئه إلى الحجاز سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٤م جعله شاهداً عياناً على بعض الأحداث وعلى صلة قريبة جداً من الأحداث الأخرى بحيث أصبح مصدراً مهماً لتاريخ الدولة السعودية الأولى.

أما العمل الثاني الذي ترجمه عن اللغة الإنجليزية كذلك فهو رحلة "بعثة إلى نجد" ١٩١٧-١٩١٨م = ١٣٣٦-١٣٣٧هـ^(١٤) لسانت جون فيليب. وقدّم العثيمين لهذه الترجمة بدراسة بلغت ٦٠ صفحة. وتأتي أهمية هذه الرحلة من كونها تقدّم لنا معلومات عن أوضاع المملكة والمنطقة في وقت مبكر نسبياً. وفيليب كان ضابطاً إنجليزياً أرسل من العراق لاستكشاف الأوضاع في المناطق التابعة لابن سعود، لكن لقاءه لابن سعود كان أسراً لم يستطع الفكاك منه طيلة حياته؛ إذ لم يلبث بعد فترة أن ترك الخدمة في الجيش البريطاني وعاد إلى الرياض واستقر في بلاط ابن سعود مستشاراً ثم اعتنق الإسلام وأصبح من مواطني المملكة العربية وخلف مؤلفات كثيرة عن رحلاته وما اكتشفه من الآثار بالمملكة وعن الأوضاع بالمملكة بعامه. وللعثيمين ترجمات أخرى في موضوع الخيل وغيرها.

أذكر كلمة موجزة عن عمله أميناً عاماً لجائزة الملك فيصل، رحمه الله، بوصفي شاهداً. لقد أولتني جائزة الملك فيصل مشكورة الثقة في كثير من المناسبات، فكنت محكماً في أحيان قليلة، وخبيراً لفحص الأعمال المرشحة في مجال العلوم الإنسانية لعدد من السنوات، وأخيراً عضواً في لجنة

الاختيار، وأشهد أنّ عبدالله العثيمين عمل وفق قواعد صارمة وبغاية السرية والأمانة والموضوعية والنزاهة. والأمانة تقتضي ذكر الفضل لأهله، فكثير من تلك المعايير والقواعد التي تسير عليها أمانة الجائزة بكل جهازها كانت من عمل أو إشراف من قام بتأسيس الجائزة وهو معالي أستاذنا أ.د. أحمد بن محمد الضبيب، أمده الله بالصحة والتوفيق.

اعتذر عن التقصير بحق أستاذنا الأستاذ الدكتور عبدالله العثيمين، فالمجال متاح لا يسمح بالتوسع أكثر من ذلك، وأختم بمثل ما بدأت بالترحم عليه وعلى أمواتنا جميعاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش:

- * أستاذ بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.
- عضو هيئة تحرير مجلة العرب.
- (١) عقدت هذه الجلسة في يوم السبت الموافق ١٧ رجب ١٤٣٧هـ.
- (٢) نشرته لأول مرة: دار العلوم، الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- (٣) مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٩هـ.
- (٤) نشر مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- (٥) نشر المؤلف، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- (٦) نشره المؤلف، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- (٧) نشر المؤلف الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- (٨) نشره المؤلف الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

- (٩) دارۃ الملك عبدالعزیز، الریاض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- (١٠) أمانة احتفال مرور مئة عام على تأسيس المملكة، الریاض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- (١١) دار الیمامة للبحث والترجمة والنشر، الریاض، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- (١٢) دارۃ الملك عبدالعزیز، الریاض، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- (١٣) نشره المؤلف، الریاض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- (١٤) مكتبة العیكان، الریاض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الأستاذ الدكتور عبد الله الصالح العثيمين أديباً وأكاديمياً

(توفي رحمه الله عصر الثلاثاء ١٢/٧/١٤٣٧ الموافق ١٩/٤/٢٠١٦م)

إعداد: د. محمد بن عبد الرحمن الهدلق ❖

أول مرة سمعت فيها باسم الصديق الأستاذ الدكتور عبد الله الصالح العثيمين كانت بعدما أصدر الأديب الشيخ عبد الله بن إدريس الطبعة الأولى من كتابه الشهير "شعراء نجد المعاصرون"، وذلك في عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م. لقد سمعت عن الكتاب من بعض الأساتذة في المعهد العلمي بشقراء، وسمعت شيئاً من حواراتهم بشأنه وبخاصة ما يتصل ببعض المذاهب الأدبية التي أشار إليها الشيخ ابن إدريس في القسم الخاص بالدراسة من كتابه، وكانت مثار اهتمام الأساتذة، لقد سمعت، وربما كان ذلك لأول مرة، عن بعض المذاهب الأدبية الكبرى مثل الكلاسيكية، والرومانتيكية، والواقعية. وقد اشتريت الكتاب وقرأته بنهمٍ. وكان مما لفت نظري فيه أنه قد اشتمل على ثلاثة شعراء كلهم يحملون لقب (عثيمين) من بينهم الشيخ محمد بن عبد الله بن عثيمين المولود في بلدة (السلمية) بالخرج، وصالح الأحمد العثيمين وعبدالله الصالح العثيمين

(المولودان في مدينة عنيزة)، ولعل مما ربط هذا الاسم بذاكرتي جيداً أنّ أحوالي كانوا يسكنون في شقراء في بيت كبير استأجروه من آل عثيمين، أبناء عم الدكتور عبد الله. الاسم ليس غريباً عليّ بل هو اسمٌ جذاب في حقيقة الأمر.

كانت القصائد التي نشرها الشيخ ابن إدريس للدكتور عبد الله قصائد وطنية تتحدث عن فلسطين والجزائر وغيرها من مواقع الأمة العربية، وكان المدد القومي العربي آنذاك على أشده تغذيه الآلة الإعلامية المصرية العالية النبرة. كان هذا في عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م وما أعقبها من سنوات ذلك العقد الزمني. ثم غاب العثيمين عن خاطري سنين طويلاً ليظهر فجأة أمام عيني في صيف عام ١٩٧١م أمام مدخل مستشفى شهير بمدينة إدنبرة

بإسكتلندا يعرف بـ: The Royal Infirmary

كنت قد جئت في ذلك الصيف برفقة الزميل الأستاذ الدكتور عبد العزيز المانع من مدينة بورنموث في جنوب إنجلترا، حيث كنّا ندرس اللغة الإنجليزية، جئنا إلى إدنبرة لنبحث عن سكن لأسرتينا في هذه المدينة الإسكتلندية الجميلة؛ لأننا سنلتحق بالجامعة في شهر سبتمبر من ذلك العام، وقد ذُكرت لنا أسماء بعض الذين يدرسون هناك من السعوديين ومن بينهم عبد الله العثيمين، وعبد الله الجربوع، وعبد الله الحبيد. وسألنا عن الجربوع، وهو آخرهم مجيئاً إلى إدنبرة، فقليل لنا: إنه يرقد في المستشفى المشار إليه أعلاه لعارض صحي ألمّ به فقررنا لحظة وصولنا أن نزوره مع أنه لم

يسبق لنا أن رأيناه من قبل. وخلال الزيارة حدثنا عن زملاء الموجودين في إدنبرة وقال لنا: لا بد لكما أن تتصلا بالعثيمين فإنه عمدة السعوديين في هذه المدينة، وودعنا الجربوع في سريره، وبينما كنا نهمّ بمغادرة مدخل المستشفى إذا بالعثيمين أمامنا، ولم يسبق لنا أن رأيناه أيضاً من قبل لكنه العثيمين لا تخطئه العين في أي موطن وُجد، كانت البسمة على محياه تجذبك إليه كما يجذب المغناطيس الحديد، وقد استجبنا للجذب. لقد جاء العثيمين إلى المستشفى زائراً زميله الجربوع فأصر عندما قابلناه على أن نعود معه إلى غرفة الجربوع، التي خرجنا منها للتوّ، ولو لبضع دقائق ليقضي واجب الزيارة ثم نخرج، وقد فعلنا.

منذ تلك اللحظة الحاسمة على مدخل المستشفى بإدنبرة انعقدت بيننا وبين هذا الرجل المحبوب صداقة وثيقة، ومعرفة عميقة وأكرم بها من صداقة وأنعم بها من معرفة...

لم تطل إقامة الدكتور عبد الله معنا في إدنبرة طويلاً بعد ذلك اللقاء إذ إنه بعد عام وبعض الأشهر (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) حصل على شهادة الدكتوراه وذلك على رسالته عن "الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دراسة لحياته، وتحليل لإنتاجه العلمي، وإيضاح لعقيدته وأفكاره، وآراء معارضيه". وبعد ذلك بقليل عاد إلى المملكة، ويعودته ترك فراغاً كبيراً ليس فقط بيننا نحن السعوديين، بل لدى كل العرب في إدنبرة، والباكستانيين، والإسكتلنديين وغيرهم ممن كانوا على صلة به. ولكنه ظل وقياً، في الأعوام

التالية لعودته ، لأصدقائه ولدينته ، فكان يسعدهم بزياراته كلما سنحت له فرصة. وكان لا ينسى إتحافهم بما هو موجود في الوطن مما لا تجده هناك. لقد بعث إليّ في سنة من السنوات كرتوناً مملوءاً بالفقع الرطب (كمأة) بعثه مع صديق له مسافر إلى لندن وقد أرسله إليّ هذا الصديق من لندن إلى إدنبرة بالبريد ، وعندما أحضره ساعي البريد ، وكانت رائحة الفقع تفوح من الكرتون ، قال لي : غريب أمر صاحبك ، لقد أرسل إليك كرتوناً من البطاطس الفاسد. ظنه المسكين بطاطس فاسدة.

إطالة على سيرة الدكتور عبد الله العثيمين :

ذكر الشيخ عبد الله بن إدريس أنّ الدكتور العثيمين قد ولد في مدينة عنيزة عام ١٣٥٦هـ وأنه نشأ بها نشأة متوسطة الحال ، وفي السابعة من عمره دخل مدرسة تعلّم القراءة والكتابة والحساب ، ولكنه سئم هذه الدراسة فتوجه إلى الرياض وهو في الثانية عشرة فعمل سمساراً -دلالاً- مدة سنة ونصف ، ثم رجع إلى عنيزة ليصبح عاملاً فلاحاً. وبعد مدة من الزمن ألزمه والده دخول المدرسة ، أو الذهاب إلى الرياض فاختار المدرسة ، وإن كان لها كارهاً ، ودخل السنة الرابعة واستمر حتى حصل على الشهادة الابتدائية ، ومن ثم دخل المعهد العلمي بعنيزة ، وكان موفقاً وناجحاً في دراسته... إلا أنه لما نجح إلى السنة الخامسة من المعهد العلمي فوجئ بفصله من الدراسة لأسباب لا يعرفها ، على أنه أكمل دراسة هذه المرحلة "شعراء نجد" ص ١٨٩.

وقد حصل على الشهادة الثانوية من المعهد العلمي بعنيزة (منتسباً) عام ١٣٧٧هـ، كما حصل على شهادة المعهد العلمي السعودي بمكة (منتسباً أيضاً) عام ١٣٧٨هـ. ثم التحق بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٣٧٩هـ "شعراء نجد المعاصرون" ص ١٨٩، وقد اختار قسم التاريخ من بين بقية الأقسام، وفي السنة الأولى في الجامعة كتب مقالاً نقد فيه بعض أعضاء هيئة التدريس فاشتكاها الأساتذة إلى إدارة الجامعة وطالبوا بفصله ففصله مجلس الجامعة. وكان يتولى الإشراف على الجامعة في ذلك الوقت المرحوم الشيخ ناصر المنقور. وبعد شفاعات ووساطات عدل قرار الفصل ليكون لمدة ثلاثة أسابيع فقط. وفي نهاية السنة الثانية من دراسته في الجامعة تعين سكرتيراً لوكيل الجامعة آنذاك معالي الأستاذ الدكتور عبد العزيز الخويطر، رحمه الله، وصار بحكم هذا العمل يحضر مجلس الجامعة لا بصفته عضواً بالطبع وإنما ليضبط محاضره بوصفه سكرتيراً لوكيل الجامعة. ولكم أن تتصوروا مشاعر الأساتذة أعضاء المجلس وهم يرون من فصلوه في العام الماضي قد أصبح يدون محاضر جلساتهم.

وقد تخرج د. عبد الله في قسم التاريخ عام ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م. ثم ابتعثته الجامعة للحصول على الدكتوراه من جامعة إنديانا، وقد حصل عليها في عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م كما سبق أن ذكرت.

الجانب الوظيفي:

بعد عودة الدكتور عبد الله العثيمين من البعثة تعين عضو هيئة تدريس في قسم التاريخ، وقد تدرج في الرتب الأكاديمية حتى حصل على درجة

الأستاذية في عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. وقد تولى رئاسة قسم التاريخ لمدة عامين، وعمل عضواً في مجلس كلية الآداب مدة ثلاث سنوات، وعضواً في المجلس العلمي بجامعة الملك سعود ممثلاً لكلية الآداب لمدة أربع سنوات. وبالإضافة إلى عمله بالجامعة فإنه كان عضواً في عدد من اللجان الهامة، فقد كان عضواً في اللجنة الاستشارية لوزير التعليم العالي لمدة أربع سنوات، وعمل مستشاراً في وزارة التربية (وزارة المعارف سابقاً) للتطوير التربوي عدة سنوات، وهو عضو في مجلس أمناء مؤسسة حمد الجاسر الخيرية.

وقد عمل عضواً في مجلس الشورى منذ عام ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م إلى عام ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

وهو عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضو هيئة تحرير مجلة الدارة، ومجلة رسالة الخليج، ومجلة العرب.

وقد عمل الدكتور عبد الله العثيمين أميناً عاماً لجائزة الملك فيصل العالمية منذ عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م إلى عام ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م عندما أقعده المرض شفاه الله.

وقد نال الدكتور العثيمين جائزة الأمير سلمان بن عبد العزيز التقديرية للرواد في تاريخ الجزيرة العربية في عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، وهذه أول مرة تمنح فيها الجائزة.

الجانب التأليفي الأكاديمي :

التكوين العلمي للدكتور عبد الله ينصبُّ أساساً على التاريخ، وله في هذا الجانب مؤلفات رائدة، وهي تمثل مصادر رئيسة في حقلها، ومن بين هذه المؤلفات :

١- العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت.

٢- تاريخ المملكة العربية السعودية.

٣- بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة.

٤- معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد.

٥- نشأة إمارة آل رشيد.

٦- قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن.

كما أنه قد حقق بعض الكتب ونشرها، ومن ذلك:

١- كيف كان ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٢- نبذة تاريخية عن نجد أملاها ضاري بن فهيد الرشيد على وديع البستاني.

٣- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب.

وله نشاط بارز في مجال الترجمة من اللغة الإنجليزية ومن ذلك :

١- من حديث بوركهارت عن الخيل والإبل العربية.

٢- بعثة إلى نجد لسانت جون فيلبي.

٣- توحيد المملكة لمحمد بن مانع.

٤- مواد لتاريخ الوهابيين لبوركهارت.

الجانب الفكري/الوطني.

من يجالس الدكتور العثيمين ويستمع إلى أحاديثه، أو يتابع قراءة ما يكتبه في بعض مؤلفاته، أو في الصحافة، أو من يقرأ دواوينه الشعرية يجد أنّ الوطن العربي بجميع أقطاره هو همُّه الأكبر.

ومن مؤلفاته في هذا الحقل:

١- تأملات في التاريخ والفكر.

٢- أنت يا فيحاء ملهمتي.

٣- خواطر حول الوطن والمواطنة.

٤- عن الوطن وإليه.

٥- قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن.

٦- من وحي رحلات إلى خارج الوطن.

٧- خواطر حول القضية.

٨- كتابات عن التصهين.

٩- مقالات عن الهمّ العربي.

١٠- مقالات عن قضايا عربية.

١١- عام من الذل والانخداع.

١٢- بيع الأوطان بالمزاد العلني.

النتاج الشعري للدكتور العثيمين:

بدأ الدكتور العثيمين نظم الشعر في فترة متقدمة من عمره، فقد أورد الشيخ ابن إدريس في ترجمته له قصائد نظم بعضها عندما كان طالباً في

المعهد العلمي بعنيزة، وقد وصف ابن إدريس الاتجاه الشعري للدكتور العثيمين بقوله:

"شاعر تعتمل في نفسه - من خلال شعره - عواصف الثورة... الثورة على كثير من أوجه الحياة المسلكية من تجبر وعجرفة تملأ إهاب الأثرياء، وذوي السلطان والجاه المزيفين. وبالجملة فهو من الشعراء الناقمين على المجتمع الذي تقدس فيه الماديات، وتحتقر المثاليات الإنسانية والخلقية، أو يكفر بها، وهو إلى جانب هذه الميزة شاعر صادق الوجدان، سلس التعبير في قوة وعمق واتساق.

وإذا عدَّ شعراء البؤس والحرمان في هذه البلاد فإنَّ شاعرنا عبد الله أحدُ الفرسان المغاوير في هذا الميدان "شعراء نجد المعاصرون"، ص ١٨٩. والشيخ ابن إدريس أصدر حكمه هذا بناء على ما كان بين يديه من شعر الدكتور عبد الله في ذلك الزمن الذي أُلّف فيه كتابه عن شعراء نجد المعاصرين، وأظنه لو كان قد اطلع على المجموعات الشعرية التي أصدرها الدكتور عبد الله بعد ذلك لكان له رأي آخر غير ما صرح به.

دواوينه الشعريّة:

للدكتور عبد الله عشرة دواوين شعرية، تسعة منها بالعربية الفصحى وواحد باللهجة النجدية وعنوانه: "ثمونة قصيد". والدواوين التي بالفصحى هي:

١- بوح الشباب.

٢- دمشق وقصائد أخرى.

- ٣- صدى البهجة. يشتمل هذا الديوان على قصائد نظمها في تقديم
الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية.
- ٤- عرس الشهباء وقصائد أخرى.
- ٥- عودة الغائب.
- ٦- في زفاف العروس.
- ٧- لا تلوموه إذا غضبا.
- ٨- لا تسلني.
- ٩- مشاعر في زمن الوهج.

ولا يتسع الحيزُ المخصص لهذه الورقة لدراسة شعر الدكتور عبد الله
والبحث في خصائصه وجمالياته، ولذلك سأكتفي بإيراد أبيات من عدد
من قصائده تمثل اتجاهات شعره وفقاً للأغراض التي نظم فيها.

ففي الجانب الوطني نجد له في بداية قوله الشعر قصيدةً أوردها الشيخ

ابن إدريس وعنوانها (ثورة لبنان، ١٩٥٨م) يقول فيها:

مثلما ينطلق الإعصار محتاحاً مهيباً
مثلما يقتحم الضرغام فتاكاً غضوباً
مثلما ينفجر البركان مهتاجاً رهيباً
قذفت ثورة شعب الأرز ناراً ولهبياً
تصطلي من بات للدولار عبداً وربياً
يا جبال الأرز قد دوت نداءات الجراح

وتعالت كهزيم الرعد صيحات الكفاح
وانبرى الأحرار كالسيل إلى حمل السلاح
يا جبال الأرز ما أنت سوى حقد وثورة
ضد نكس رام أن يلهب فوق الشعب جوره
من رأى في الغرب معبوداً ولن يعبد غيره
وعميل سوف يستأصل هذا الشعب أمره.

وله قصيدة وطنية قديمة أوردتها ابن إدريس عنوانها (عيد الوحدة)
يتحدّث فيها عن الوحدة بين مصر وسوريا، يقول فيها:

يا روابي الخلد حيي أمّة شُغفت بالوحدة الكبرى هياما
أمّة زّفت إلى هام العلا وحدة رفّت على القطرين عاما
يخفق النصر على آفاقها باسم الثغر طرّوبا مُستهما
نفحاتُ (النيل) هزت (بردى) فمضى يلقي على النيل الخزامى
والتقى الإخوان من بعد النوى ودموعُ البشر تنهل انسجاما
فغدا الشعبان في قطريهما دولة تأبى مدى العمر انقساما
"شعراء نجد المعاصرون" ص ١٩٩.

وفي ديوان العثيمين المعنون: "لا تسلني" نجد قصيدة عنوانها (عنيزة
والحلم الثاني)، وقد ذكر الدكتور عبد الله أنّ هذه القصيدة جاءت من
وحي قصيدة مشهورة للأستاذ الدكتور نذير العظمة نظمها بعد زيارة لمدينة
عنيزة وكان عنوانها (عنيزة والحلم) فقال العثيمين:

أيها الشاعر والفيحاء مهوى كل شاعر
قَبَلَ الحسَنُ على ساحاتها ثغَرَ المفاخر
لُحْنَكَ الشاميُّ إذ ناجيتها هزَّ المشاعر
فأجابتك تليداً يصل المجد بحاضر
وربِّي يعمرها الإيمانُ طهراً ومناثر
وأجابتك جَمالاً حسنه للقلب آسر
لوحة وشحها الفن نخيلاً وبيادر
وأصيلاً فوق موج الرمل سحريّ المناظر
والليالي قمرٌ في بُرده الفتان ساهر
خطف الغفوة من عينيه إيقاعات سامر
أيها الشاعر أهدي مقلة الفيحاء زهرة
حلماً يرقص فيه ألف تسأل وفكرة
وطني من عقب التاريخ يستلهم ذكره
مالك بن الريب في حُضن الغضى يكتب شعره
والرديني لهيب في سبيل الحق ثورة. "لا تسلني"، ٣٢-٣٣)
ومن ديوانه المعنون: "دمشق وقصائد أخرى" نورد أبياتاً من القصيدة
التي سمى الديوان باسمها، وفيها يقول:
في مهجتي لربوع الشام تخان صانت حُمياً أزمان وأزمان
وأطرته من التاريخ غادية فاشتد أصلاً وماست منه أغصان

أُتيت أحمله حرفاً تسطره
وجئت يحملني عبر المدى قبس
على جناحين ميمونين حفهما
ومن عشيات نجدٍ مستطاب صبا
أُتيت من وطني شوقاً إلى وطني
وانشق من كبد الصحراء فارسها
ويرفع الراية الخضراء موحدّة
وتنتشي طرباً نجدٌ معانقة
مرابع رحبات المسجدين لها
دمشق يا ألق التاريخ ها أنذا
قدمت أثلّم مجداً شاده نُجُبُ
أنت الحضارة إشعاعاً ومنطلقاً
وأنت يا قلعة الأحرار أغنية
ومن القصائد الجميلة قصيدة كتبها الدكتور عبد الله بعد عودته من
دراسته في اسكتلندا إلى بلده عنيزة سنة ١٩٧٢م وهي بعنوان "عودة
الغائب"، وقد جعل منها عنواناً لأحد دواوينه، وفيها يقول:
طربت. ماذا على المشتاق أن طرباً لما دنت لحظات نحوهنّ صبا؟
أرست على مدرج الأجداد طائرتي وموعدي مع أحلامي قد اقتربا

حيث التي أسرت قلبي تعانقني
كم قد مكثت بعيداً عن مفاتنها
وكم بعثت أناشيدني لأخبرها
لواعج الشوق كم كانت تؤرقني
من كان مثلي بالفيحا تعلّقه
أحلى العرائس ما من عاشق لمحت
تنام ما بين جالٍ كله شمم
وإن تأملت أزياء تتيه بها
حبيبتي أنت يا فيحاء ملهمتي
رجعت من غربتي كي أستريح على
هنا سمعت أهازيجاً مرتلةً
تعيد لي صورة الهفوف كاملة
وصورتي كل يوم حاملاً بيدي
ومعهداً كان لي فيه سناً أمل
غابوا كما غبت عن أركان مسرحه
فواحد ضاع في أعماق وحدته
وثالث حزّ في نفسي تغيّبه
ما زلت مثل كثير من أحبته

وتمسحُ الهمَّ عن عينيّ والتعبا
أغالب السهد في سكتلند مغتربا
أني على العهد طال الوقت أم قربا
وكامن الوجد كم أذكى دمي لها
فلا غرابة إن عانى ولا عجبا
عيناه فتتها إلى لها خطبا
وبين كئبان رمل كلهن إبا
رأيت من بينها البرحيّ والعنبا
ما خطّه قلبي شعراً وما كتبنا
رباً لدى قلبي المضمنى أعزُّ رباً
وعشت أيام أشواقٍ وعهد صبا
الناس والشارع المسقوف والعتبا
إلى العزيزية الكراس والكتبا
وإخوة جمعوا الأخلاق والأدبا
ومزقتهم ظروف دبّرت إربا
وآخر عن قوافي شعره رغبا
وإن يكن لذرا الأمجاد قد طلبنا
ليوم عودته المأمول مرتقبا

وفي ديوان "لا تسلني" تطالعنا قصيدة عاطفية أسرة نظمها الشاعر فيما يبدو في مدينة إندبيرة، وقد يكون نظمها في المملكة لكن المحرّض على نظمها كان تمثالاً من الحسن رآه الشاعر في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة إندبيرة في إحدى زيارته لها.

عنوان القصيدة: (لا الشوق خَفَّ) وفيها يقول: لا فُضَّ فوه:

لا الشوق خَفَّ ولا القلبُ الجريحُ سلا	عمَّن تجسد فيها الفنُّ واكتملا
تلك التي سحرها الفتانُ أدهشه	وبث في قدميه العجز والشلا
هيفاء تقتل إن ماست وإن لعبت	رياضة جعلت مَنْ حولها ثملا
ألهمت متيِّمَ بحثٍ عن دراسته	وبدَّلت رغبةً في نفسه مللا
حتى غدا باحثًا عمَّا يقربه	منها ويختلق الأعدارَ والسُّبلا
يؤمُّها كل سبتٍ كي يلاعِبها	ما غرَّها مرة سهواً ولا كسلا
وما عهدناه ممَّن همَّه كرةٌ	ولا تدرب "بالفوتبول" أو عملا
لكن من أوقعته في حباتها	قد أوجدت منه في ميدانها بطلا
ولا يلام محبُّ في تصرفه	من يقرأ الأدبَ الماضي يجد مثلا
ما من فتى غرقت في الحب مهجته	إلا أطاع لأمر الحب وامثلا
وزهرة الروض كم أغرى تفتُّحها	طرفاً فما صدَّ عن رؤياه أو غفلا
ما زال يذكرُ إذ حيَّته أن هوى	من سحرها لامس الوجدان فاشتعلا
وراح يسأل عنها الخِلَّ فارتسمتْ	على محيَّاه روحُ الحبِّ قلت: "هلا"

كلا الضريين أردته مفاتها فتاه في حُسنها الجذابِ وانشغلا
كلا الضريين لا حظَّ يساعده ولا فؤادُ عن الجنس اللطيف سلا
ولا يتسع الوقت المحدد لهذه الورقة لإيراد نماذج أخرى من شعره،
ولكن لا يفوتني أن أشير إلى أن الدكتور عبد الله، بوصفه شاعراً، قد قدّم
أمسياتٍ شعريةً، أو شارك فيها وذلك في داخل المملكة وفي خارجها.
كما أن شعره قد ظفر بعناية كثير من الدارسين. ومن كتب عنه دراسات
جادة الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب الذي ألف عنه كتاباً مطوّلاً عنوانه:
"عرار نجد، قراءة في شعر عبد الله العثيمين"، وقد اشتمل الكتاب على
قصائد نادرة لم تنشر في غيره من الكتب أو الدواوين، وقد صدر الكتاب
عن المجمع العلمي العراقي.

كما أن مِمَّن كتب عن شعره: الزينو السلوم من مدينة حلب، فقد
خصص الفصل الحادي عشر من كتابه "شعراء تحت الضوء" للحديث عن
شعر الدكتور عبد الله. وهناك دراسات أخرى غير ما أوردته.
رحم الله الأستاذ الدكتور عبد الله العثيمين، وأسكنه فسيح جنّاته.

* أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.
عضو هيئة تحرير مجلة العرب.

أسس اللغة العربية الفصحى، تأليف: أ.د. فالح بن شبيب العجمي،
الرياض، كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها،
١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م، ٥١٣ صفحة.

جاءت فكرة هذا الكتاب من خلال نظر الباحث إلى بعض الحقائق التي جعلته يتساءل ويقول: إنّ اللغة ليست صنعة، بل طبع بشري، والنحو ليس طبعاً، بل صنعة متأخرة؛ فكيف يكون المتقدّم تابعاً للمتأخر ونتاجاً له؟

يتفق الجميع على أنّ المتكلم أو الكاتب (مستخدم اللغة) لا بد أن يملك الحد الأدنى على الأقل من الطبع اللغوي الذي يجعله يعبر عمّا في نفسه ويفهم ما يقرأ أو يسمع، ولكنه قد لا يملك من معرفة النحو شيئاً بوصفه صنعة وعلماً، وهذا يجعل الباحث يتساءل مرة أخرى عند قراءة كتب النحو فيقول: كيف يُقرر في كثير من الأقوال العربية التي تُعدّ مسلّمات، وفي كثير من كتب التراث العربي، أنّ العربي بحاجة إلى النحو (العلم والصنعة) كي يستقيم كلامه؟

وعليه يصل إلى نتيجة وهي أنّ اللغة لا تحكمها قواعد صارمة تلزم المتكلمين باتباعها حرفياً، بل هي أطر عامة ومجالات متعددة متاحة أمام المتكلم يستخدم منها ما شاء، وهدف هذا الكتاب تبين تلك الأُطر أو المجالات.

وقد قسّم العمل إلى ثلاثة أبواب هي :

١. الإطار العام (١-٤٦)

٢. المفردات والمتواليات (٤٧-٢٦٢)

٣. الأساليب العربية (٢٦٣-٥٠٢)

وقد فطن المؤلف إلى أنّ الأساليب اللغوية تتطور مع الزمن، فكانت المادة الاستشهادية في الكتاب متناسبة مع عامل الزمن، فنجده يستشهد بنصوص من القرن الأول الهجري متمثلة بالقرآن الكريم، ويسير زمنياً مروراً بالكتب التراثية للمبردّ والجاحظ وغيرهما إلى أن يصل للعصر الحديث مستدلاً بنصوص روائية لغازي القصيبي وغيره من الروائيين المعاصرين، دون اعتبار لفترة الاحتجاج التي وضعها النحاة، وهي تنتهي في منتصف القرن الثاني للهجرة في الحاضرة ومنتصف القرن الرابع في البادية.

ع.ن.م

إهداءات إلى مكتبة العربيه

أولاً- الكتب :

- أمي، عبدالله بن سالم الحميد، ط ١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- فلسفة الوداع لدى غازي القصيبي، عبدالله بن سالم الحميد، ط ١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- قطر في الذاكرة والوجدان، عبدالله بن سالم الحميد، ط ١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- الملك فهد في مرآة الشعر العربي، قماشة بنت إبراهيم الحبيب، إصدار دار الملك عبدالعزيز (٢٨٣)، ١٤٣٣هـ.
- نوح العود في أيام الشريف حمود، تأليف عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، تكملة الحسين بن أحمد عاكش، دراسة وتحقيق د. علي بن حسين الصميلي، إصدار دار الملك عبدالعزيز (٢٨٦)، ١٤٣٣هـ.

ثانياً- المجالات :

- الفرقان، العدد ٧٥٢، ٢٨ محرم ١٤٣٥هـ/٢/١٢/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٥، ٢٠ صفر ١٤٣٥هـ/٢٣/١٢/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٦، ٢٧ صفر ١٤٣٥هـ/٣٠/١٢/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٧، ٥ ربيع الأول ١٤٣٥هـ/١/٦/٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.